المأمــون

أعلام الخلفاء
العباسيين

الخليفة العباسي المأمون

هو الخليفة أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي.

ولد سنة سبعين ومائة.

وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وبالغ، وعمل المرصد فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ نسأل الله السلامة.

وسمع من: هشيم، وعبيد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبي معاوية، وطائفة.

روى عنه: ولده الفضل، ويحيى بن أكثم، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، وعبد الله بن طاهر الأمير، ودعبل الشاعر، وأحمد بن الحارث الشيعي.

وكان من أشد رجال بني العباس حزمًا وعزمًا ورأيًا وعقلاً وهيبة وحلما، ومحاسنه كثيرة في الجملة.

قال ابن أبي الدنيا: كان أبيض ربعة، حسن الوجه، تعلوه صفرة، قد وخطه الشيب، وكان طويل اللحية، أعين، ضيق الجبين، على خده شامة.

أتته وفاة أبيه وهو بمرو سائرًا لغزو ما وراء النهر، فبايع من قبله لأخيه الأمين، ثم جرت بينهما أمور وخطوب وبلاء وحروب تشيب النواصي، إلى أن قتل الأمين، وبايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومائة.

قال الخطبي: كنيته أبو العباس، فلما استخلف، اكتنى بأبي جعفر، واسم أمه مراجل، ماتت في نفاسها به.

قال: ودعي له بالخلافة في آخر سنة خمس وتسعين، إلى أن قتل الأمين، فاجتمع الناس عليه، فاستعمل على العراق الحسن بن سهل، ثم بايع بالعهد لعلي بن موسى الرضي، ونوه بذكره، ونبذ السواد، وأبدله بالخضرة فهاجت بنو العباس، وخلعوا المأمون، ثم بايعوا عمه إبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك، وعسكروا، فحاربهم الحسن بن سهل، فهزموه،

فتحيز إلى واسط، ثم سار جيش المأمون عليهم حميد الطوسي، وعلي بن هشام، فالتقوا إبراهيم، فهزموه، فاختفى زمانًا وانقطع خبره إلى أن ظفر به بعد ثمان سنين، فعفا عنه المأمون.

وكان المأمون عالمًا فصيحًا مفوهًا، وكان يقول: معاوية بن أبي سفيان بعمره، وعبد الملك بحجاجه، وأنا بنفسي. وقد رويت هذه أن المنصور قالها.

وعن المأمون: أنه تلا في رمضان ثلاثا وثلاثين ختمة.

حدث يحيى بن أكثم: قال لي المأمون: أريد أن أحدث. قلت: ومن أولى بهذا منك؟ قال: ضعوا لي منبرًا، ثم صعد.

قال: فأول ما حدثنا عن هشيم، عن أبي الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعًا: امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار ثم حدث بنحو من ثلاثين حديثًا. ونزل، فقال: كيف رأيت أبا يحيى مجلسنا؟ قلت: أجل مجلس، تفقه الخاصة والعامة. قال: ما رأيت له حلاوة، إنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر.

وكان جوادًا ممدحًا معطاء، ورد عنه أنه فرق في جلسة ستة وعشرين ألف ألف درهم، وكان يشرب نبيذ الكوفة، وقيل: بل يشرب الخمر - فالله أعلم.

وقيل: إنه أعطى أعرابيا مدحه ثلاثين ألف دينار.

وعن يحيى بن أكثم قال: كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء، فجاء رجل قد شمر ثيابه، ونعله في يده، فوقف على طرف البساط، وقال: السلام عليكم. فرد المأمون، فقال: أتاذن لي في الدنو؟ قال: ادن، وتكلم، قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة أم بالغلبة والقهر؟ قال: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولى أمر الأمة من عقد لي ولأخي، فلما صار الأمر إلي، علمت أني محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين على الرضا بي، فرأيت أني متى خليت الأمر، اضطرب حبل الإسلام، ومرج عهدهم، وتنازعوا، وبطل الحج والجهاد، وانقطعت السبل، فقمت حياطة للمسلمين، إلى أن يجمعوا على من يرضونه، فأسلم إليه.

فقال: السلام عليك ورحمة الله. وذهب، فوجه المأمون من يكشف خبره، فرجع، فقال: مضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيئته، فقالوا: لقيت الرجل؟ قال: نعم، وأخبرهم بما جرى، فقالوا: ما نرى بما قال بأسا، وافترقوا. فقال المأمون: كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب.

وقيل: إن المأمون استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرس، وقدم دمشق مرتين.

قال أبو معشر المنجم: كان أمارًا بالعدل، محمود السيرة، ميمون النقيبة، فقيه النفس، يعد من كبار العلماء.

وروى عن الرشيد، قال: إني لأعرف في عبد الله ابني حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع - يعني نفسه - لفعلت، وقد قدمت محمدًا عليه، وإني لأعلم أنه منقاد إلى هواه، مبذر لما حوته يداه، يشارك في رأيه الإماء، ولولا أم جعفر وميل الهاشميين إليه، لقدمت عليه عبد الله.

عن المأمون قال: لو عرف الناس حبي للعفو، لتقربوا إلي بالجرائم وأخاف ألا أؤجر فيه.

وعن يحيى بن أكثم: كان المأمون يحلم حتى يغيظنا، قيل: مر ملاح، فقال: أتظنون أن هذا ينبل عندي وقد قتل أخاه الأمين؟! فسمعها المأمون، فتبسم، وقال: ما الحيلة حتى أنبل في عين هذا السيد الجليل؟.

قيل: أهدى ملك الروم للمأمون نفائس، منها مائة رطل مسك، ومائة حلة سمور. فقال المأمون: أضعفوها له ليعلم عز الإسلام.

وقيل: أدخل خارجي على المأمون، فقال: ما حملك على الخلاف؟ قال: قوله:{ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ} [المائدة: ٤٤]، قال: ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم. قال: وما دليلك؟

قال: إجماع الأمة. قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل، فارض بإجماعهم في التأويل. قال: صدقت. السلام عليك يا أمير المؤمنين.

دخل المأمون ديوان الخراج، فرأى غلاما جميلا على أذنه قلم، فأعجبه جماله، فقال: من أنت؟ قال: الناشئ في دولتك، وخريج أدبك،

والمتقلب في نعمتك يا أمير المؤمنين، حسن بن رجاء، فقال: يا غلام، بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر برفع رتبته، وأمر له بمائة ألف. وعن المأمون قال: أعياني جواب ثلاثة:

صرت إلى أم ذي الرياستين الفضل بن سهل أعزيها فيه، وقلت: لا تأسي عليه، فإني عوضه لك، قالت: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أحزن على ولد أكسبني مثلك.

قال: وأتيت بمتنبئ، فقلت: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قلت: ويحك، موسى كانت له آيات، فائتني بها حتى أومن بك. قال: إنما أتيت بالمعجزات فرعون، فإن قلت: أنا ربكم الأعلى كما قال، أتيتك بالآيات.

وأتى أهل الكوفة يشكون عاملهم، فقال خطيبهم: هو شر عامل، أما في أول سنة، فبعنا الأثاث والعقار، وفي الثانية بعنا الضياع، وفي الثالثة نزحنا وأتيناك، قال: كذبت، بل هو محمود، وعرفت سخطكم على العمال. قال: صدقت يا أمير المؤمنين، وكذبت، قد خصصتنا به مدة دون باقي البلاد، فاستعمله على بلد آخر ليشملهم من عدله وإنصافه ما شملنا. فقلت: قم في غير حفظ الله، قد عزلته.

وعن المأمون قال: الناس ثلاثة: رجل منهم مثل الغذاء لا بد منه، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال.

وعنه قال: لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال.

وعنه: غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة.

وعنه: الملك يغتفر كل شيء إلا القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

وعنه: أعيت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر، وإذا أدبر أن يقبل.

وقيل له: أي المجالس أحسن؟ قال: ما نظر فيه إلى الناس، فلا منظر أحسن من الناس.

قيل: إن المأمون لتشيعه أمر بالنداء بإباحة المتعة - متعة النساء - فدخل عليه يحيى بن أكثم، فذكر له حديث علي - رضي الله عنه -

بتحريمها، فلما علم بصحة الحديث، رجع إلى الحق، وأمر بالنداء بتحريمها.

أما مسألة القرآن، فما رجع عنها، وصمم على امتحان العلماء في سنة ثمان عشرة، وشدد عليهم، فأخذه الله.

وكان مرض بأرض الثغر، فلما احتضر، طلب ابنه العباس ليقدم، فوافاه بآخر رمق، وقد نفذت الكتب إلى البلدان، فيها: " من المأمون وأخيه أبي إسحاق الخليفة من بعده " فقيل: وقع ذلك بغير أمر المأمون، وقيل: بل بأمره.

وأشهد على نفسه عند الموت أن عبد الله بن هارون أشهد عليه أن الله وحده لا شريك له، وأنه خالق، وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن من أن يكون شيئا له مثل، والله لا مثل له، والبعث حق، وإني مذنب، أرجو وأخاف، وليصل علي أقربكم، وليكبر خمسًا، فرحم الله عبدًا اتعظ وفكر فيما حتم الله على جميع خلقه من الفناء، فالحمد لله الذي توحد بالبقاء، ثم لينظر امرؤ ما كنت فيه من عز الخلافة، هل أغنى عني شيئا إذ نزل أمر الله بي؟ لا والله، لكن أضعف به على الحساب، فيا ليتني لم أك شيئا، يا أخي، ادن مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذ طوقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه، ولا تغتر فكأن قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، فإن الملك بهم، الله الله فيهم وفي غيرهم، يا أبا إسحاق، عليك عهد الله، لتقومن بحقه في عباده، ولتؤثرن طاعته على معصيته، فقال: اللهم نعم. هؤلاء بنو عمك من ذرية علي رضي الله عنه، أحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم.

ثم مات في رجب، في ثاني عشره، سنة ثمان عشرة ومائتين وله ثمان وأربعون سنة، توفي بالبذندون فنقله ابنه العباس، ودفنه بطرسوس في دار خاقان خادم أبيه.

قال الأصمعي: كان نقش خاتمه: عبد الله بن عبيد الله.

وله من الأولاد: محمد الكبير، والعباس، وعلي، ومحمد، وعبيد الله، والحسن، وأحمد، وعيسى، وإسماعيل، والفضل، وموسى،

وإبـراهيم، ويعقـوب، وحسـن، وسـليمان، وهـارون، وجعفـر، وإسـحاق، وعدة بنات[1].

مواقف من حياته:

بين المأمون وعمرو بن مسعدة:

قـال علـي ابـن محمـد النـوفلي: أن المـأمون ذكـر عمـر بـن مسـعدة، فاستبطأه في أشياء، وقال: أيحسب عمرو أني لا أعرف أخباره، وما يجبى إليه، وما يعامل به الناس، بلى والله، ثم يظن أنه لا يسقط علي منه شـيء؟، وكان أحمد بن أبي خالد حاضراً لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون.

فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنـا عائذ بالله من سخط أمير المؤمنين، وأنا أقل من أن يشكوني إلـى أحد، أو يسر علي ضغناً يظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال: لم يكن الأمر كذلك، وإنما جرى معنىً أوجب ذكر ما ذكرت، فقدمته قبل أن أخبرك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، وسكن منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه.

فلما دخل أحمد بن أبي خالد إلى المأمون، قال له: أشكو إليك من بحضرتي من خدمي وأهلي، أما لمجلسي حق ولا حرمة ليكتم ما يجري فيه، حتى يؤدى إلى عمرو بن مسعدة، فإنه قد أبلغ أشياء قلتها فيه، واتهمت فيها بعض بني هاشم ممن كان حاضراً، وذلك أن عمراً دخل علي، وأعاد ما كان، فاعتذرت له بعذر لم يبن الحق نسجه، ولم يتسق

(1) المعارف لابن قتيبة: 387، الأخبار الطوال: 400، تاريخ اليعقوبي 3 / 172، الطبري 8 / 478، مـروج الـذهب للمسـعودي 2 / 247 - 269، البـدء والتـاريخ 6 / 112، الفهرست: 129، تاريخ بغداد 10 / 183، الكامل لابن الأثير 6 / 282، النبراس لابن دحيـة 46 - 63، عيـون التـواريخ 8 / لوحـة 12، البدايـة والنهايـة 10 / 244، الـذهب المسبوك: 186، النجوم الزاهرة 2 / 225، تاريخ الخلفاء: 306 - 333، تاريخ الخميس 2 / 334، شذرات الذهب 2 / 39، فوات الوفيات 2 / 235 - 239.

القول مني فيه، وإن لسان الباطل، لعي الظاهر والباطن، وما نعش الباطل أحداً قال له أحمد: لا يتهم أمير المؤمنين أحداً، أنا أخبرت عمراً، قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصح لك، والمحبة لتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحب استصلاح الأعداء والبعداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيما مثل عمرو، في موضعه من الدولة، وموقعه من الخدمة، ومكانه من رأي أمير المؤمنين، فخبرته بما أنكره عليه، ليقوم أود نفسه، ويتلافى ما فرط منه، وإنما العيب لو أفشيت كلاماً فيه لأمير المؤمنين سر، أو قدح على السلطان، أو نقض تدبير له.

فقال له: أحسنت والله يا أحمد، إذ كفيتني مخاضة الظن، وصدقتني عن نفسك، وأزلت التهمة عن غيرك [1].

المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك ويمتنع عن استخدامه:

حدث حماد بن إسحاق، عن أبيه قال: كنت بين يدي المأمون قائماً فدخل ابن البواب الحاجب، برقعة فيها أبيات، فقال له: أتأذن في إنشادها؟ قال: هات، فأنشد:

أجرني فإنّي قد ظمئت إلى الوعد ... متى ينجز الوعد المؤكّد بالعهد
أعيذك من خلف الملول وقد ترى ... تقطّع أنفاسي عليك من الوجد
رأى الله عبد الله خير عباده ... فملّكه والله أعلم بالعبد
ألا إنّما المأمون للنّاس عصمة ... مميّزة بين الضلالة والرّشد

فقال له المأمون: أحسنت يا عبد الله، وظنها له.

فقال: بل أحسن قائلها يا أمير المؤمنين.

قال: ومن هو قائلها؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص52.

فقطب، وقال: لا حيا الله من ذكرت، ولا بياه، ولا قربه، أليس هو القائل:

أعينيّ جودا وابكيا لي محمّدا ... ولا تدخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمّت الأشياء بعد محمّدٍ ... ولا زال شمل الملك فيه مبدّدا
ولا فرح المأمون بالعيش بعده ... ولا زال في الدّنيا طريداً مشرّدا

هذا بذاك، ولا شيء له عندنا.

فقال ابن البواب: فأين فضل أمير المؤمنين، وسعة حلمه، وعادته في العفو؟ فأمر بإحضاره.

فلما حضر، سلم، فرد عليه السلام رداً خفياً، ثم قال: أخبرني عنك، هل عرفت - يوم قتل أخي - هاشميةً قتلت، أو هتكت؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك؟:

ومما شجى قلبي وكفكف عبرتي ... محارم من آل النّبي استحلّت
ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها ... كعاب كقرن الشمس حين تبدّت
إذا خفرتها روعة من منازع ... لها المرط عاذت بالخضوع ورنّت
وسرب ظباءٍ من ذؤابة هاشم ... هتفن بدعوى خير حيّ وميّت
أردّ يداً منّي إذا ما ذكرته ... على كبدٍ حرّى وقلّ مفتّت
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ... ولا بلّغت آمالها من تمنّت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني.

فدمعت عينا المأمون، وقال: قد عفوت عنك وأمرت لك بإدرار أرزاقك عليك، وإعطائك ما فات منها، وجعلت عقوبة ذنبك، امتناعي عن

استخدامك[1].

وال مستعطف خير من وال مستأنف:

ووقف أحمد بن عروة بين يدي المأمون، لما عزله عن الأهواز، فقال له: أخربت البلاد، وقتلت العباد، لأفعلن بك وأصنعن.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما تحب أن يفعله الله بك إذا وقفت بين يديه، وقد قرعك بذنوبك؟.

قال: العفو، والصفح.

قال: فافعل بعبدك، ما تحب أن يفعله الله بك.

قال: قد فعلت، ارجع إلى عملك، فوال مستعطف، خير من وال مستأنف[2].

المأمون يصفح عن دعبل الخزاعي الشاعر ويصله:

قرئ على أبي بكر الصولي، سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، بالبصرة، وأنا أسمع: حدثكم هارون بن عبد الله المهلبي، سنة ثمانين ومائتين، قال: لما هجا دعبل، المأمون، قال لهم: أسمعوني ما قال، فأنشدوه هذين البيتين من أبيات، وهما:

إنّي من القوم الّذين سيوفهم :: قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله :: واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون: قبحه الله، ما أبهته، متى كنت خامل الذكر، وفي حجر الخلافة ربيت، وبدرها غذيت، خليفة، وأخو خليفة، وابن خليفة.

ثم جد في طلب دعبل، حتى ظفر به، فلم يشك أحد في أنه قاتله.

فلما دخل عليه، قال له: يا دعبل، واستنقذوك من الحضيض الأوهد.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد عفوت عمن هو أعظم مني جرماً.

فقال: صدقت، لا بأس عليك، أنشدني مدارس آيات.

---

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص55، 56.
(2) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص66.

فقال: أنشدها وأنا آمن؟ قال: نعم.

فأنشده إياها، فجعل المأمون يبكي، لما بلغ قوله:

بنات زياد في القصور مصونة ⁝ وبنت رسول الله في الفلوات

ثم وصله وأمنه[1].

المأمون يهب عمرو بن مسعدة ستة آلاف ألف درهم فيهبها عمرو لأحد أتباعه:

أمر المأمون محمد بن يزداد، وأحمد بن أبي خالد، أن يناظرا عمرو بن مسعدة، في مال الأهواز، فناظراه، فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم، فأعلما المأمون بذلك.

فقال: اقبلا منه كل حجة، وكل تعلق، وكل ادعاء.

فقالا: قد فعلنا.

فقال: عودا. فعادا، فتعلق عمرو بن مسعدة بأشياء لا أصل لها، فسقط من المال عشرة آلاف ألف درهم، وبقي ستة آلاف ألف درهم واجبة عليه، لا حجة له فيها، وأخذ خطه بذلك.

فأحضر المأمون عمراً، بعد خروجهما، فقال له: هذه رقعتك؟ قال: نعم.

قال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم.

قال: خذ رقعتك، فقد وهبته لك.

فقال: أما إذ تفضل أمير المؤمنين علي به، فإنه واجب على أحمد بن عروة، وأشهدك أني قد وهبته له.

فاغتاظ المأمون، وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون، وعلم خطأه في عمله، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد، فأعلمه بذلك، وكان يختصه.

فقال: لا عليك، ودخل إلى المأمون.

(1) المصدر السابق، ص66.

فلما رآه المأمون، قال: ألا تعجب يا أحمد من عمرو، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم، بعد أن تجاوزنا له عن أضعافها، فوهبها بين يدي لأحمد ابن عروة، كأنه أراد أن يباريني، ويصغر معروفي؟ فقال له أحمد: أو قد فعل ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم.

قال: لو لم يفعل هذا، لوجب أن يسقط حاله.

قال: وكيف؟ قال: لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة، وأخذ أحمد بأداء هذا المال، لكان قد أخرجه من معروفك صفراً، ولما كانت نعمتك على عمرو، نعمة على أحمد، وهما خادماك، فكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما، فقصد عمرو ذلك، فصار المال تفضلاً منك على عمرو، وعلى أحمد بن عروة، ومع ذلك، فأنت سيد عمرو لا يعرف سيداً غيرك، وعمرو سيد أحمد، فاقتدى في أمر أحمد بما فعلت في أمره، وأراد أيضاً أن ينتشر في ملوك الأمم، أن خادماً من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال، من فضل إحسانك إليه، فيزيد في جلالة الدولة، وجلالة قيمتها، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك.

فسري عن المأمون، وزال ما بقلبه على عمرو[1].

المأمون يصفح عن الفضل بن الربيع:

لما ظفر المأمون بالفضل بن الربيع، ومثل بين يديه، قال له: يا فضل، أكان من حقي عليك، وحق آبائي، ونعمتهم عندك، وعند أبيك، أن تثلبني، وتشتمني، وتحرض على دمي؟ أتحب أن أفعل بك مع القدرة، ما أردته بي؟.

فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا عفته العيوب، وقبحته الذنوب، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منه، فأنت - والله - يا أمير المؤمنين، كما قال الشاعر:

صفوح عن الإجرام حتّى كأنّه :: من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى :: إذا ما الأذى لم يغش بالكره

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص66.

: مســـــــــــــــــــــــــلما

قال الصولي: والشعر للحسن بن رجاء[1].

المأمون يرضى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

عن إسحاق، قال: أقام المأمون بعد دخوله بغداد عشرين شهراً، ولم يسمع حرفاً من الأغاني، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى بن الرشيد أول مرة، ثم واظب على السماع متستراً، متشبهاً بالرشيد في أول أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنين.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: وكان حين أحب السماع، سأل عني، فجرحت بحضرته، وقال الطاعن علي: ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلفاء، ما بقى هذا من التيه شيئاً إلا استعمله.

فأمسك عن ذكري، وجفاني من كان يصلني لسوء رأيه فيّ، فأضر ذلك بي، حتى جاءني علويه يوماً، فقال لي: أتأذن لي في ذكرك بحضرة المأمون، فإنا قد دعينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنه بهذا الشعر، فإنه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟ فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء.

قال: هات، فألقيت عليه لحني في شعري:

::

يا سرحة الماء قد سدّت موارده : أما إليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتّى لا حيام به :: مشرّد عن طريق الماء مطرود

:

قال أبو الفرج الأصبهاني: والغناء فيه لإسحاق الموصلي، رمل بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانة.

رجع الحديث، قال: فمضى علويه، فلما استقر به المجلس، غناه بالشعر، الذي أمره به إسحاق.

فقال المأمون: ويلك يا علويه، لمن هذا الشعر؟.

فقال: يا سيدي لعبد من عبيدك، جفوته، وأطرحته، من غير ذنب.

(1) المصدر السابق، ص68.

فقال: إسحاق تعني؟ قال: نعم.

فقال: يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءني رسول المأمون، فصرت إليه، فلما دخلت إليه استدناني، فدنوت منه، فرفع يديه إلي مادهما، فانكببت عليه، فاحتضنني بيديه، وأظهر من بري وإكرامي، ما لو أظهره صديق مؤانس لصديق، لسر به.

وقد ذكر القاضي أبو الحسين هذا الخبر، في كتابه بغير إسناد، وبأقل من هذا الشرح، والمعنى متقارب[1].

يهب أحد أتباعه خمسة آلاف ألف درهم:

قال أبو عبد الله محمد بن عيسى المروروذي صاحب يحيى بن خاقان، عنه، قال: كان المأمون ألزمني خمسة آلاف ألف درهم، فأعلمته أني لا أملك إلا سبعمائة ألف درهم، وحلفت له على ذلك، بأيمان مغلظة، اجتهدت فيها، فلم يقبل مني، وحبسني عند أحمد بن هشام، وكان بيني وبينه شر قد اشتهر وعرف، وكان يتقلد الحرس.

فقال أحمد للموكلين بي: احفظوه، واحذروا أن يسم نفسه.

ففطن المأمون لمراده، فقال: لا يأكل يحيى بن خاقان، ولا يشرب إلا ما يؤتى به من منزله.

قال: فأقمت على ذلك مدة، فوجه إلي الحسن بن سهل بألف ألف درهم، ووجه إلي فرج الرخجي بألف ألف درهم، ووجه إلي حميد الطوسي بألف ألف درهم، وأضفت ذلك إلى ما كان عندي، واضطربت حتى جمعت خمسة آلاف ألف درهم.

فلما اجتمعت، كتبت إلى المأمون بحضور المال الذي ألزمني إياه، فأمر بإحضاري، فدخلت إليه وبين يديه أحمد بن أبي خالد، وعمرو بن مسعدة، وعلي بن هشام.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص68.

فلما رآني، قال لي: أولم تخبرني وتحلف لي أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم، فمن أين لك هذا المال؟ فصدقته عن أمره، وقصصت القصة عليه.

فأطرق طويلاً، ثم قال لي: قد وهبته لك.

فقال له الحضور: أتهب له خمسة آلاف ألف، وليس في بيت المال درهم واحد، وأنت محتاج إلى ما دون ذلك بكثير؟ فلو أخذته منه قرضاً، فإذا جاءك مال رددته عليه.

فقال لهم: أنا على المال أقدر من يحيى، وقد وهبته له.

فرددت إلى القوم ما كانوا حملوه، وتخلصت.

يتنازل لأحد أتباعه عن عشرة آلاف ألف درهم:

قال محمد بن عبدوس في كتابه أخبار الوزراء: ذكر الفضل بن مروان، أن محمد بن يزداد سعى إلى المأمون بعمرو بن بهنوى.

فقال له المأمون: يا فضل، خذ عمراً إليك، وقيده، وضيق عليه، ليصدق عما صار إليه من مال الفيء، فقد اختان مالاً عظيماً، وطالبه به.

فقلت: نعم، وأمرت بإحضار عمرو، فأحضر، فأخليت له حجرة في داري، وأقمت له ما يصلحه، وتشاغلت عنه بأمور السلطان، في يومي وفي الغد.

فلما كان في اليوم الثالث، أرسل إلي عمرو يسألني الدخول عليه، فدخلت، فأخرج إلي رقعة، قد أثبت فيها كل ما يملكه من الدور، والضياع، والعقار، والأموال، والفرش، والكسوة، والجوهر، والقماش، والكراع، وما يجوز بيعه من الرقيق، وكان قيمة ذلك عشرون ألف ألف درهم، وسألني أن أوصل رقعته إلى المأمون، وأعلمه أن عمراً قد جعله من ذلك كله في حل وسعة.

فقلت له: مهلاً، فإن أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك مالك كله، ونعمتك عن آخرها.

فقال عمرو: إنه لكما وصفت، في كرمه، ولكن الساعي لا ينام عني ولا عنك، وقد بلغني ما أمرت به في أمري من الغلظة، وما عاملتني بضد ذلك، وقد طبت نفساً بأن أشتري عدل أمير المؤمنين في أمري، ورضاه عني، بجميع مالي.

فلم أزل أنزله، حتى وافقته على عشرة آلاف ألف درهم، وقلت له: هذا شطر مالك، وهو صالح للفريقين، وأخذت خطه بالتزام ذلك صلحاً عن جميع ما جرى على يده.

وصرت إلى المأمون فوجدت محمد بن يزداد وقد سبقني إليه وهو يكلمه، فلما رآني قطع الكلام وخرج.

فقال لي المأمون: يا فضل.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: ما هذه الجرأة منك علينا؟.

قلت: يا أمير المؤمنين، أنا عبد طاعتك وغرسك.

فقال: أمرتك بالتضييق على النبطي عمرو بن بهنوى، فقابلت أمري بالضد، ووسعت عليه، وأقمت له الأنزال.

فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن عمراً يطالب بأموال عظيمة، ولم آمن أن أجعل محبسه في بعض الدواوين فيبذل مالاً يرغب في مثله، فيتخلص، فجعلت محبسه في داري، وأشرفت على طعامه وشرابه، لأحرس لك نفسه، فإن كثيراً من الناس خانوا السلطان، وتمتعوا بالأموال، ثم طولبوا بها، فاحتيل عليهم أن يتلفوا، ويفوز بالأموال غيرهم.

قال الفضل: وإنما أردت بذلك تسكين غضب المأمون علي، ولم أعرض الرقعة عليه، ولا أعلمته ما جرى بيني وبين عمرو، لأني لم آمن سورته في ذلك الوقت، لاشتداد غضبه.

فقال لي: سلم عمراً إلى محمد بن يزداد، قال: فوجهت من ساعتي، من سلم عمراً إلى محمد بن يزداد، فلم يزل يعذبه بأنواع العذاب، ليبذل له شيئاً، فلم يفعل.

فلما رأى أصحابه وعماله، ما قد ناله، جمعوا له بينهم ثلاثة آلاف ألف درهم، وسألوا عمراً أن يبذلها لمحمد بن يزداد، فبذلها، فصار محمد إلى المأمون متبجحاً بها، فأوصل الخط بها إلى المأمون، وأنا واقف.

فقال المأمون: يا فضل، ألم أعلمك، أن غيرك أقوم بأمورنا منك، وأطوع لما نأمره به؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أرجو أن أكون في حال استبطاء أمير المؤمنين أعزه الله، أبلغ في طاعته من غيري.

فقال المأمون: هذه رقعة عمرو بن بهنوى بثلاثة آلاف ألف درهم.

فقلت، وما اجترأت عليه قط، جرأتي عليه في ذلك اليوم، فإني خرجت إلى إضبارة كانت مع غلامي، فأخذت الرقعة منها مسرعاً، وقلت: والله، لأعلمن أمير المؤمنين، أني مع رفقي، أبلغ في حياطة أمواله من غيري مع غلظته، وأريته رقعة عمرو التي كان كتبها لي، وحدثته بحديثه عن آخره.

فلما تبين المأمون الخطين، وعلم أنهما جميعاً خط عمرو، قال: ما أدري أيكما أكرم، عمرو حين شكر برك، وطاب نفساً بالخروج عن ملكه بهذا السبب، أم أنت، ومحافظتك على أهل النعم، وسترك عليه في ذلك الوقت، والله، لا كنتما يا نبطيان، أكرم مني.

ودفع الرقعة التي أخذها محمد بن يزداد من عمرو إلي، وأمرني بتخريقها، وتخريق الأولة، وأنفذ من سلم عمراً من محبسه إلي، وأمرني بإطلاقه.

فخرجت من بين يديه، وفعلت ذلك من وقتي[1].

المأمون يغضب على فرج الرخجي ثم يرضى عنه ويقلده فارس والأهواز:

وكان المأمون قد غضب على فرج الرخجي، فكلمه عبد الله بن طاهر، ومسرور الخادم، في إطلاقه.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص102، 103.

قال فرج: فبت ليلتي، فأتاني آت في منامي، فقال لي:

لمّـا أتـى فرجـاً مـن ربّـه فـرج ⁝ جئنـا إلـى فـرجٍ نبغي بـه الفرجـا

فلما كان من الغد، لم أشعر إلا واللواء قد عقد لـي علـى ولايـة فـارس والأهواز، وأطلق لي خمسمائة ألف درهم معونة.

فإذا أبو الينبغي الشاعر على الباب، وقد كتب هذا البيت في رقعة.

فقلت له: متى قلته؟ قال لي: البارحة، في الوقت الذي رضي عنك فيه.

فأمرت له بعشرة آلاف درهم[1].

ما قصتك؟

وحدث أبو القاسم علي بن محمد بن أبي حسان الزيـادي، وكـان محـدثاً ببغداد، ثقة، مشهوراً، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال:

كنت وليت القضاء من قبل أبي يوسف القاضي رحمه الله، ثم صرفت، وتعطلـت، وأضـقت إضـاقة شـديدة، وركبنـي ديـن فـادح، لخبـاز، وبقـال، وقصـاب، وعطـار، وبـزاز، وغيـرهم، حتـى قطعـوا معـاملتي لكثـرة مـالهم علي، وإياسهم من أن أقضيهم، فتضاعفت إضاقتي، واشتدت حيرتي.

فإني يوماً بمسجدي، قد صليت بأهله الغداة، ثم انفتلت أدرس أصحابي الفقه إذ جاءني رجل خراساني، وذكر الحديث علـى نحـو مـا ذكره طلحـة، إلا أنه لم يقل فيه حملة: فإلى...

وقال أبو الفرج في حديثه: فلما بلغت مربعة الخرسي، استقبلني موكب فيه شموع ونفاطات، قد أضاء منه الطريق، فصار كالنهار، فطلبت زقاقاً أستخفي فيه، حتى يجوز الموكب، فلم أجد، فإذا برجل من الموكب، يقول: أبو حسان والله، فتأملته، فإذا هو دينار بن عبد الله، فسلمت عليه.

فقال: إليك جئت، أرسل إلي أمير المؤمنين الساعة، وأمرني أن أركب إليك بنفسي، وأحضره إياك.

فمضيت معه، حتى أدخلني على المأمون.

(1) المصدر السابق، ص109.

فقال لي المأمون: ما قصتك؟ فإني رأيتك في النوم البارحة، والنبي صلى الله عليه وسلم، يأمرني بإغاثتك.

فحدثته بحديثي.

فقال المأمون: أعطوا أبا حسان ثلاث بدر، وولاني الري، وأمرني بالخروج إليها.

قال: فعدت إلى بيتي وما طلع الفجر، فلما كان وقت صلاتي في مسجدي، خرجت، وإذا بالخراساني، فلما قضيت الصلاة، أدخلته إلى البيت، فأخرجت إليه البدر.

فلما رآها، قال: ما هذا؟ فقصصت عليه القصة، وأعطيته بدرة منها، فأخذها وانصرف.

وذكر محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، في أخبار دينار بن عبد الله: أن رسوله لقي أبا حسان في الطريق، فقال له: قسمت شيئاً على عيالنا، فذكرت عيالك، فأنفذت إليك عشرة آلاف درهم، فأخذها، ورجع من الطريق، وباكره الخراساني، فأعطاه إياها كلها، لأنه كان قد أنفق جميع مال الخراساني، ثم عاد من غد إلى دينار، فعرفه، وشكره، وعرفه الحديث.

فقال: فكأنما قضينا الخراساني في ماله، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم أخرى، ولم يذكر ابن عبدوس في خبره ذكر المنام.

وحدثني أبي هذا الحديث في المذاكرة، قال: حدثني شيخ - ذكره أبي وأنسيته أنا، عن أبي حسان الزيادي، بنحو ما ذكره محمد بن جعفر في حديثه، إلا أنه قال فيه: إن الخراساني قال في حديثه لأبي حسان: إن رجع الحجاج ولم ترني قد رجعت إليك، فاعلم أني هلكت، والبدرة هبة مني إليك، وإن رجعت فهي لي، ثم يتقارب لفظ الحديثين، إلى أن لقيه في الجانب الشرقي قوم فلما رآهم تنحى عن طريقهم، فلما رأوه بطيلسان، بادروا إليه، وقالوا له: أتعرف منزل رجل يقال له أبو حسان الزيادي؟ فقال: أنا هو.

فقالوا له: أجب أمير المؤمنين، وحمل فأدخل إلى المأمون.

فقال له: من أنت؟ فقال: رجل من أصحاب أبي يوسف القاضي من الفقهاء وأصحاب الحديث.

قال: بأي شيء تكنى؟ فقال: بأبي حسان.

فقال: بماذا تعرف؟ فقال: بالزيادي، ولست منهم، وإنما نزلت فيهم، فنسبت إليهم.

فقال: قصتك، فشرحت له قصتي.

فبكى بكاء شديداً، وقال: ويحك، ما تركني رسول الله أن أنام بسببك، أتاني في أول الليل فقال: أغث أبا حسان الزيادي، فانتبهت ولم أعرفك، واعتمدت السؤال عنك، وأثبت اسمك ونسبك ونمت، فأتاني، فقال كمقالته، فانتبهت منزعجاً، ثم نمت، فأتاني، وقال: ويحك، أغث أبا حسان، فما تجاسرت على النوم، وأنا ساهر، وقد بثثت في طلبك، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم، وقال: هذه للخراساني، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم أخرى، وقال: اتسع بهذه، وأصلح أمرك، وعمر دارك، واشتر مركوباً سريًّا، وثياباً حسنة، وعبداً يمشي بين يدي دابتك، ثم أعطاني ثلاثين ألف درهم، وقال: جهز بها بناتك، وزوجهن، فإذا كان يوم الموكب، فصر إلي، حتى أقلدك عملاً جليلاً، وأحسن إليك.

فخرجت والمال بين يدي محمول، حتى أتيت مسجدي، فصليت الغداة، والتفت فإذا الخراساني بالباب، فأدخلته إلى البيت، وأخرجت بدرة فدفعتها إليه.

فقال: ليس هذه بدرتي، أريد مالي بعينه.

فقصصت عليه قصتي، فبكى، وقال: والله لو صدقتني في أول الأمر عن خبرك لما طالبتك، وأما الآن، فوالله لا دخل مالي شيء من مال هؤلاء، وأنت في حل، وانصرف.

فأصلحت أمري، وبكرت يوم الموكب إلى باب المأمون، فدخلت، وهو جالس جلوساً عاماً.

فلما مثلت بين يديه استدناني، ثم أخرج عهداً من تحت مصلاه، وقال: هذا عهدك على قضاء المدينة الشرقية من الجانب الغربي من مدينة السلام، وقد أجريت عليك في كل شهر كذا وكذا، فاتق الله تدم عليك عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعجب الناس من كلام المأمون وسألوني عن معناه، فأخبرتهم الخبر، فانتشر.

فما زال أبو حسان قاضي الشرقية، إلى آخر أيام المأمون[1].

المأمون بخراسان ينقلب حاله من أشد الضيق إلى أفسح الفرج:

وذكر في كتابه عن جبريل بن بختيشوع، في خبر طويل، أنه سمع المأمون يقول: كان لي بخراسان يوم عجيب، فأولى الله فيه بإحسانه جميلاً، لما توجه طاهر بن الحسين إلى علي بن عيسى بن ماهان، كما قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوة علي، وقر في نفوس عسكري جميعاً، أن طاهراً ذاهب، ولحق أصحابي إضاقة شديدة، وظهرت فيهم خلة عظيمة، ونفد ما كان معي، فلم يبق منه لا قليل ولا كثير، وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب، فلم أدر إلى أين أهرب، ولا كيف آخذ، وبقيت حائراً متفكراً.

فأنا - والله - كذلك وكنت نازلاً في دار أبوابها حديد، ولي مستشرفات أجلس فيها إذا شئت، وعدد غلماني ستة عشر غلاماً، لا أملك غيرهم، وإذا بالقواد والجيش جميعاً قد شغبوا، وطلبوا أرزاقهم، ووافوا جميعاً يشتموني، ويتكلمون بكل قبيح.

فكان الفضل بن سهل بين يدي، فأمر بإغلاق الأبواب، وقال لي: قم فاصعد إلى المجلس الذي يستشرف فيه، إشفاقاً علي من دخولهم، وسرعة أخذهم إياي، وتعليلاً لي بالصعود.

فقلت: القوم يدخلون الساعة، فيأخذوني، فلأن أكون بموضعي، أصلح.

فقال لي: يا سيدي اصعد، فوالله، ما تنزل إلا خليفة.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص126، 127.

فجعلت أهزأ به، وأعجب منه، وأحسب أنه إنما قال ما قال، ليسمعني، وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلها.

فألح علي أن أصعد، فصعدت وأنا وجل، فجلست في المستشرف، وأنا أرى العسكر.

فلما علموا بصعودي اشتد كلبهم، وشتمهم، وضجيجهم، وبادروني بالوعيد والشتم، فأغلظت على الفضل بن سهل وقلت له: أنت جاهل، غررتني، لو تدعني أعمل برأيي، وليس العجب إلا ممن قبل منك، وهو في هذا كله، يحلف أنني لا أنزل إلا خليفة، وغيظي عليه، وتعجبي من حمقه، ومواصلة الأيمان أنني لا أنزل إلا خليفة، مع ما أشاهده، والحال يزيد، أشد علي مما أقاسيه من الجند.

ثم وضع القوم النار في شوك جمعوه، وأدنوه من الدار، ونقبوا في سورها عدة نقوب، وثلموا منه قطعة، فذهبت نفسي خوفاً وجزعاً، وعلمت أني بين أن أحترق، وبين أن يصلوا إلي فيقتلوني، فهممت بأن ألقي نفسي إليهم، وقدرت أنهم إذا رأوني استحيوا مني، وأقصروا.

وجعل الفضل بن سهل يقبل يدي ورجلي، ويناشدني أن لا أفعل، ويحلف لي أني لا أنزل إلا خليفة، وفي يده الإسطرلاب، ينظر فيه في الوقت بعد الوقت.

فلما اشتد علي الأمر، واستحكم اليأس، قال لي: يا سيدي، قد - والله - أتاك الفرج، أرى شيئاً في الصحراء قد أقبل، ومعه فرجنا، فازددت من قوله غيظاً، وأمرت غلماني بتأمل الصحراء، فلم أر، ولم يروا شيئاً.

وجد القوم في الهدم والحريق، حتى هممت - لما داخلني - أن أرمي بالفضل إليهم.

فقال الغلمان: إنا نرى في الصحراء شيئاً يلوح، فنظرت فإذا شبح، وجعل يزيد تبياناً، إلى أن تبينوا رجلاً على بغلة، ثم قرب، فإذا هو يلوح، وقرب من العسكر، وقويت له قلوبنا، ورأى الجند ذلك فتوقفوا، وخالطهم، فإذا هو يقول: البشرى، هذا رأس علي بن عيسى بن ماهان معي في

المخلاة، فلما رأوا ذلك أمسكوا عنا، وانقلبوا بالدعاء، والسرور بالظفر والفتح.

فقال لي الفضل بن سهل: يا سيدي، ائذن لي في إدخال بعضهم، فأذنت له، فشرط عليهم أن لا يدخل إلا من يريد، فأجابوا إلى ذلك، وسمى قوماً من القوم، فأدخلهم.

فكان أول من دخل علي، عبد الله بن مالك الخزاعي، فقبل يدي، وسلم علي بالخلافة، ثم أدخل القواد بعده، واحداً، واحداً، ففعلوا مثل ذلك، فأطفأ الله - عز وجل - النائرة، ووهب السلامة، وقلدني الخلافة، فظفرت من أموال علي بن عيسى بن ماهان، وما في عسكره، بما أصلحنا به أمور جندنا[1].

ألمعية المأمون وذكاؤه:

قال: دعا المأمون يوماً بأبي عباد، فدفع إليه كتاباً مختوماً، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة، فيناظره على ما فيه باباً، باباً، ويأخذ تحت كل باب خطه فيه، ويختمه بخاتمه، وخاتم عمرو، ويحتفظ به إلى أن يسأله عنه، ولا يذكره ابتداءً، وأكد على ذلك.

قال: فعلمت أنها وقيعة، وقد كنت شاركت عمراً في أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخفت أن تكون مذكورة في الكتاب.

فقصدت عمراً، فوجدته في بستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشطرنج مع بعض أصحابه، فعرفته أني محتاج إلى الخلوة معه.

فقال: دعني الساعة، فقد استوى لي هذا الدست.

فضاق صدري، وقلبت الشطرنج، وقلت: قد سال السيل، وهلكنا وأنت غافل، اقرأ هذا الكتاب، فقرأه، فطالبته أن يكتب خطه، تحت كل فصل منه، بحجته.

فضحك، وقال: ويحك، أما تستحي، تخدم رجلاً طول هذه المدة، ولا تعرف أخلاقه، ولا مذهبه؟.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص126، 127.

فقلت: يا هذا، أخبرني عنك، إن أقدمت على جحد ما في هذا الكتاب، لتعذر حجة ما شاركتك فيه، أما أنا فوالله أجحد، ولكن أصبر لأمر الله تعالى.

قال: فتحب أن أطلعك على ما هو أشد عليك من هذا؟.

قلت: وما هو؟.

فقال: كتاب دفعه إلي أمير المؤمنين منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا، فعرفت ضيق صدرك، فلم أذكره لك.

فكدت أموت إلى أن فرغ من كلامه، فقلت له: أرني إياه، فأحضره، وقرأته، وأنا أنتفض، وعمرو يضحك.

فلما فرغت منه، قلت: عند الله أحتسب نفسي ونعمتي.

فقال: أنت والله مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقع تحت كل فصل.

فنظر إلى جملة ما نسب إليه في الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقع في آخره: لو قصرت همتنا في هذا القدر وأضعافه، لوسعتنا منازلنا، وما يفي هذا، بدلجة في برد، أو روحة في حر، وأرجو أن يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، ويبلغنا فيه ما نؤمله به، وعلى يده.

وكان جملة ما رفع علي سبعة وعشرين ألف ألف درهم.

فقال: يا هذا، إن صاحبنا ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يطوى معروفه، وإنما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار إلينا، فأمسك عنه على علم.

ثم ختم الكتاب بخاتمه، وخاتمي، وانصرفت وأنا في الموت، فلم ألبث أن كتبت وصيتي، وأحكمت أمري، وكنت سنة مغموماً، وذاب جسمي.

فقال لي المأمون يوماً: يا أبا عباد، قد أنكرت حالك، أتشكو علة؟ فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكني منذ سنة، حي كميت، لأجل الكتاب الذي دفعه إلي أمير المؤمنين، لأناظر عليه عمرو بن مسعدة.

فقال: أمسك عني، حتى أعيد عليك جميع ما جرى بينكما، فحدثني

بجميع ما دار بيننا، كأنه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذي وكلته بخبرنا، والله، ما خرم منه حرفاً.

فقال: والله، ما وكلت بكما أحداً، ولكن ظنًّا ظننته، وعلمت أنه لا يدور بينكما غيره، ولقد عجبت من غير عجب، لأن عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرف بنا منك، وأوسع صدراً، وأبعد همة، وما أردت بما فعلت، إلا أن تعلما أني قد عرفت ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببت أن أزيل عنكما غم المساترة، وثقل المراقبة، وأني لمتذمم لكما، خجل من ضعف أثري عليكما.

فسررت، وصرت كأني أطلقت من عقال، فشكرته ودعوت له.

ثم قلت: ما أصنع بذلك الكتاب؟.

قال: خرقه إلى لعنة الله، وامض مصاحباً، آمناً، في ستر الله عز وجل[1].

المأمون يهب أحد كُتابه اثني عشر ألف ألف درهم:

وجدت في كتاب عتيق فيه أخبار جمعها يعقوب بن بيان الكاتب: حدثني أبو القاسم علي بن داود بن الجعد، قال: حدثني يزيد بن دينار بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن يحيى بن خاقان، قال: كنت كاتب الحسن بن سهل، فقدم المأمون مدينة السلام، فقال لي: يا يحيى، خلوت بالسواد، ولعبت بالأموال التي لي، واحتجنتها، واقتطعتها.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما أنا كاتب الرجل، والمناظرة في الأموال، والأعمال، مع صاحبي، لا معي.

فقال: ما أطالب غيرك، ولا أعرف سواك، فصالحني على مائة ألف ألف درهم.

قال: فضحكت.

فقال: يا يحيى، أجد وتهزل؟.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص126، 127.

فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، إنما ضحكت تعجباً، وبالله، ما أملك إلا سبعمائة ألف درهم.

فقال: دع هذا عنك، وأعطني خمسين ألف ألف درهم.

قال: فما زلت أجاذبه، ويجاذبني، إلى أن بلغ اثنا عشر ألف ألف درهم، فلما بلغ إليها، قال: نفيت من الرشيد، إن نقصتك شيئاً منها.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: أقم لي ضميناً، إن لم تف لي بها، طالبته.

قلت: صاحبي يا أمير المؤمنين يضمنني.

فقال: أتراني إن دافعت الأداء، أطالب الحسن بن سهل عنك؟ هذا ما لا يكون.

فقلت: عبد الله بن طاهر.

فقال: عبد الله بن طاهر، سبيله سبيل صاحبك.

قلت: فحميد.

قال: وهذه سبيله.

قلت: ففرج مولاك يا أمير المؤمنين.

قال: مليء - والله - وثقة، ثم التفت إلى فرج، فقال: أتضمنه يا فرج؟.

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قد ضمنته.

فقال: أنا والله محرجه بالإلحاح في المطالبة، حتى يهرب، أو يستتر، ثم آخذك بالمال، فتؤديه، فإنك ملي به.

فقال فرج: صاحبي ثقة، وهو لا يخفرني، إن شاء الله.

قال يحيى: فكتبت إلى الحسن بن سهل، وعبد الله بن طاهر، وحميد، ودينار بن عبد الله، وغسان، ورجال المأمون، أسألهم إعانتي في المال.

قال: فحملوا لي ذلك عن آخره، حمل كل إنسان منهم، على قدره، قال يحيى: فكتبت رقعة إلى المأمون، أعرفه أن المال قد حضر، وأسأله أن يأمر من يقبضه.

قال: فأحضرني، فلما وقعت عينه علي، قال لي: يا خائن، الحمد لله الذي بين لي خيانتك، وأظهر لي كذبك، ألم تذكر أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم؟ فكيف تهيأ لك أن حملت في عشرة أيام اثني عشر ألف ألف درهم؟ قال: فقلت: حملت، يا أمير المؤمنين من هذه الجريدة، ودفعت إليه جريدة بأسماء من حمل إلي المال، ومبلغ ما حمل كل واحد منهم.

قال: فقرأ الجريدة، ثم أطرق مليًّا، ورفع رأسه، فقال: لا يكون أصحابنا، أجود منا، هذا المال قد وهبناه لك، وأبرأنا ضمينك.

قال يحيى: فانصرفت، فرددت المال إلى أصحابه، فأبوا أن يقبلوه، وقالوا: قد وهبناه لك، فاصنع به ما أحببت.

قال: فحلفت، ألاَّ أقبل منه درهماً، وقلت لهم: أخذته في وقت حاجتي، ورددته عند استغنائي عنه، وقبولي إياه في هذا الوقت ضرب من التغنم، فرددته عليهم[1].

جيء به مذنب وخرج وهو مثاب:

حدث أبو نصر بن أبي داؤد، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: كنت يوماً عند المأمون، وقد جاءوه بإبراهيم بن المهدي، وفي عنقه ساجور، وفي رجله قيدان، فوقف بين يدي المأمون.

فقال له: هيه، يا إبراهيم، إني استشرت في أمرك، فأُشير علي بقتلك، فرأيت ذنبك يقصر عن واجب حق عمومتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، أبيت أن تأخذ حقك إلا من حيث عودك الله تعالى، وهو العفو عن قدرة.

فقال المأمون: مات - والله - الحقد، عند هذا العذر، يا غلام، لا يتخلف أحد من أهل المملكة عن الركوب بين يديه، ويحمل بين يديه عشر بدر، وعشرة تخوت ثياب.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص176، 177.

قال: ما رأيت إنساناً جيء به وهو مذنب، فخرج وهو مثاب، وأهل المملكة بين يديه، إلا هو[1].

قبض عليه وهو بزي امرأة:

وجد في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطي: أن إبراهيم بن المهدي، لما طال استتاره من المأمون، ضاق صدره، فخرج ليلة من موضع كان فيه مستخفياً، يريد موضعاً آخر، في زي امرأة، وكان عطراً.

فعرض له حارس، فلما شم منه رائحة الطيب، ارتاب به، فكلمه، فلم يجب، فعلم أنه رجل، فضبطه.

فقال له: خذ خاتمي، فثمنه ثلاثون ألف درهم وخلني، فأبى، وعلق به، وحمله إلى صاحب الشرطة، فأتى به المأمون.

فلما أدخله داره، وعرف خبره، أمر بأن يدخل إليه، إذا دعي، على الحال التي أخذ عليها.

ثم جلس مجلساً عامًّا، وقام خطيب بحضرة المأمون، يخطب بفضله، وما رزقه الله، جلت عظمته، من الظفر بإبراهيم.

وأدخل إبراهيم بزيه، فسلم على المأمون، وقال: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناولته يد الاغترار، بما مد له من أسباب الرجاء، لم يأمن عادية الدهر، ولست أخلو عندك من أن أكون عاقلاً أو جاهلاً، فإن كنت جاهلاً فقد سقط عني اللوم من الله تعالى، وإن كنت عاقلاً، فيجب أن تعلم أن الله عز وجل، قد جعلت فوق كل ذي عفو، كما جعل كل ذي ذنب دوني، فإن تؤاخذ، فبحقك، وإن تعف، فبفضلك، ثم قال:

ذنبي إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا ... فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص176، 177.

وقال:

أذنبـــت ذنبـــاً عظيمـــاً :: وأنـــت للعفـــو أهـــل
فـــإن عفـــوت فمـــنٌّ :: وإن جزيـــت فعـــدل

قال: فرق له المأمون، وأقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العباس والقواد، وقال: ما ترون في أمره؟ فقال بعضهم: يضرب عنقه.

وقال البعض: تقطع أطرافه، ويترك إلى أن يموت، وكل أشار بقتله، وإن اختلفوا في القتلة.

فقال المأمون، لأحمد بن أبي خالد: ما تقول أنت يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن قتلته، وجدت مثلك قد قتل مثله، وإن عفوت عنه، لم تجد مثلك قد عفا عن مثله، فأي أحب إليك، أن تفعل فعلاً تجد لك فيه شريكاً، أو أن تنفرد بالفضل؟ فأطرق المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، فقال: أعد علي ما قلت يا أحمد، فأعاد.

فقال المأمون: بل ننفرد بالفضل، ولا رأي لنا في الشركة.

فكشف إبراهيم المقنعة عن رأسه، وكبر تكبيرة عالية، وقال: عفا - والله - أمير المؤمنين عني، بصوت كاد الإيوان أن يتزعزع منه، وكان طويلاً، آدم، جعد الشعر، جهوري الصوت.

فقال له المأمون: لا بأس عليك يا عم، وأمر بحبسه في دار أحمد بن أبي خالد.

فلما كان بعد شهر، أحضره المأمون، وقال له: اعتذر عن ذنبك.

فقال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أجل من أن أتفوه معه بعذر، وعفو أمير المؤمنين، أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكني أقول:

تفديك نفسي أن تضيق بصالح :: والعفو منك بفضل جود واسع
إنّ الذي خلق المكارم حازها : في صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة :: وتظلّ تكلؤهم بقلب خاشع
فعفوت عمّن لم يكن عن مثله : عفو ولم يشفع إليكَ بشافع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا :: وحنين والدة بقلب جازع
ردّ الحياة إليّ بعد ذهابها : كرم المليك العادل المتواضع

فقال له المأمون: لا تثريب عليك يا عم، قد عفوت عنك، فاستأنف الطاعة متحرزاً من الظنة، يصف عيشك، وأمر بإطلاقه، ورد عليه ماله وضياعه، فقال إبراهيم يشكره في ذلك:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به ... وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فأبت عنك وقد خوّلتني نعماً ... هما الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال، حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عاريّة رجعت ... إليك لو لم تعرها كنت لم تلم
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متّهم
فإن جحدتك ما أوليت من نعم ... إنّي لباللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون: إن من الكلام، كلاماً كالدر، وهذا منه، وأمر لإبراهيم بخلع ومال، قيل أنه ألف ألف درهم.

وقال له: يا إبراهيم، إن أبا إسحاق، وأبا عيسى، أشارا علي بقتلك.

فقال إبراهيم: ما الذي قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت لهما: إن قرابته قريبة، ورحمه ماسة، وقد بدأنا بأمر، وينبغي أن نستتمه، فإن نكث فالله مغير ما به.

قال إبراهيم: قد نصحا لك، ولكنك أبيت إلا ما أنت أهله يا أمير المؤمنين، ودفعت ما خفت، بما رجوت.

فقال المأمون: قد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك، وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين[1].

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص225.

إن من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة:

لما دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظفر به، كلمه بكلام كان سعيد بن العاص كلم به معاوية بن أبي سفيان في سخطة سخطها عليه، واستعطفه به، وكان المأمون يحفظ الكلام.

فقال له المأمون: هيهات يا إبراهيم، هذا كلام قد سبقك به فحل بني العاص، وقارحهم، سعيد بن العاص، خاطب به معاوية.

فقال له إبراهيم: وأنت إن عفوت عني، فقد سبقك فحل بني حرب، وقارحهم، إلى العفو، ولم تكن حالي في ذلك، أبعد من حال سعيد عند معاوية، فإنك أشرف منه، وأنا أشرف من سعيد، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية، وإن من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة.

فقال له: صدقت يا عم، وقد عفوت عنك[1].

لما قدم للقتل تماسك فلما عفي عنه بكى:

لما حصل إبراهيم بن المهدي في قبضة المأمون، لم يشك هو وغيره في أنه مقتول، فأطال حبسه في مطمورة، بأسوأ حال وأقبحها.

قال إبراهيم: فأيست من نفسي ووطنتها على القتل، وتعزيت عن الحياة، حتى صرت أتمنى القتل، للراحة من العذاب، وما أؤمله في الآخرة، من حصول الثواب.

فبينا أنا كذلك، إذ دخل علي أحمد بن أبي خالد مبادراً، فقال: أعهد، فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك.

فقلت: أعطني دواة وقرطاساً، فكتبت وصية ذكرت فيها كل ما احتجت إليه، وأسندتها إلى المأمون، وشكلة والدتي، وتوضأت، فتطوعت ركعات، ومضى أحمد.

وفرغت من الصلاة، وجلست أتوقع القتل، فعاد إلي أحمد بعد ساعتين، فقال: أمير المؤمنين، يقرؤك السلام، ويقول لك: أنا أحمد الله - جلت عظمته - الذي وفقني لصلة رحمك، والصفح عنك، وقد أمنك، ورد

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص176، 177.

عليك نعمتك، وجميع ضياعك وأملاكك، فانصرف إلى دارك.

قال: فبدأت أدعو للمأمون، وغلب البكاء علي والانتحاب، وهو يطالبني بالجواب، وأنا غير متمكن منه.

فقال لي أحمد: لقد رأيت منك عجباً، أخبرتك أني أمرت بضرب عنقك، فلم تجزع، ولم تبك، ثم أخبرتك بتفضل أمير المؤمنين عليك، وصفحه عنك، فلم تتمالك من البكاء.

فقلت له: أما السكوت عند الخبر الأول، فلأني لم أتوسم - منذ ظفر بي - أن أسلم من القتل، فلما ورد علي ما لم أشك فيه، لم أجزع له، ولم أبك.

وأما بكائي عند الخبر الثاني، فوالله العظيم شأنه، ما هو عن سرور بالحياة، ولا لرجوع النعمة، وما بكائي إلا لما كان مني في قطيعة رحم من عنده - بعد استحقاقي منه القتل - مثل هذا الصفح الذي لم يسمع في جاهلية ولا إسلام، بأن أحداً أتى بمثله، فقد حاز أمير المؤمنين الثواب من الله تعالى، في صلة رحمه، وبؤت أنا بالإثم، في قطيعة رحمي، وقد أظهر إحسانه إساءتي، وحلمه جهلي، وفضله نقصي، وجوابي هو ما شاهدت وسمعت.

فرجع أحمد إلى المأمون فأخبره، ثم عاد إلي بمال وخلع، ومركوب، فانصرفت إلى داري ونعمتي[1].

قال المأمون: لقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، ووجدت الخبر على خلاف هذه الرواية، فأخبرني أبو الفرج الأموي المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش، قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي، عن الجاحظ، قال: أرسل إلي ثمامة، يوم حبس المأمون إبراهيم بن المهدي، وأمر بإحضار الناس على مراتبهم، فحضروا، وجيء بإبراهيم.

وفي رواية أنه لما ظفر المأمون بإبراهيم المهدي، أحب أن يوبخه على رؤوس الأشهاد، فأمر بإحضار الناس على مراتبهم، وجيء بإبراهيم يرسف في قيوده، فوقف على طرف البساط في طرف الإيوان، يحجل في

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص245.

قيوده.

فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله تعالى وبركاته.

فقال له المأمون: لا سلم الله عليك، ولا كلأك، ولا حفظك، ولا رعاك.

فقال له إبراهيم: على رسلك يا أمير المؤمنين، فلقد أصبحت ولي الثأر، والقدرة تذهب الحفيظة، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب، كما أصبح عفوك فوق كل عفو، ولم يبق إلا عفوك، أو انتقامك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، وأنت للعفو أقرب.

فأطرق المأمون مليًّا، ثم رفع رأسه، فقال: إن هذين أشارا علي بقتلك، يعني أخاه المعتصم، وابنه العباس، وكانا يشيران عليه في معظم تدبير الخلافة والسياسة.

فقال إبراهيم: لقد نصحا لك يا أمير المؤمنين فيما أشارا عليك به، وما غشاك، إذ كان مني ما كان، ولكن الله عز وجل، عودك في العفو عادة جريت عليها، دافعاً ما تخاف بما ترجو، فكفاك الله كل مكروه، ودفع عنك كل محذور.

قال: فتبسم المأمون، وأقبل على ثمامة، وقال: إن من الكلام ما يفوق الدر، ويغلب السحر، وكلام عمي منه، أطلقوه، وفكوا عن عمي حديده، وردوه إلي مكرماً.

فلما رد إليه، قال: يا عم، صر إلى المنادمة، وارجع إلى الأنس، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب، فلقد حبب إلي العفو، حتى خفت أن لا أؤجر عليه، أما أنه لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة، لتقربوا إلينا بالذنوب، لا تثريب اليوم عليك يا عم، يغفر الله لنا ولك، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن إساءتك، ولو لم يكن في حق قرابتك، ما يستحق العفو عن جرمك، لبلغت ما أملت بحسن تنصلك، ولطف توصلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله إليه.

فلما كان من الغد، بعث إليه إبراهيم درجاً فيه هذه الأبيات:

يـا خيـر مـن ذملـت يمانيـة بـه :: بعـد الرسـول لآيـس أو طـامع
والله يعلـم مـا أقـول فإنّهـا : جهـد الألّيـة مـن حنيـف راكـع
قسـماً ومـا أدلـي إليـك بحجّـة :: إلاّ التضـرّع مـن مقـرّ خاشـع
مـا إن عصيتك والغواة تمدّ لـي : أسـبابها إلاّ بقلـب طـائع
حتـى إذا علقـت حبائـل شـقوتي :: بـردى علـى حفـر المهالـك هـائع
لـم أدر أنّ لمثـل ذنبـي غـافراً : فأقمت أرقب أيّ حتف صارعي
ردّ الحيـاة علـيّ بعـد ذهابهـا :: عفـو الإمـام القـادر المتواضـع
أحيـاك مـن ولاّك أطـول مـدّة : ورمى عدوّك في الوتين بقاطع
إنّ الـذي قسـم الفضـائل حازهـا :: فـي صـلب آدم للإمـام السـابع
كـم مـن يـدٍ لـك لا تحـدّثني بهـا : نفسـي إذا آلـت إلـيّ مطـامعي
أسـديتها عفـواً إلـيّ هنيئـة :: فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
ورحمـت أطفـالاً كـأفراخ القطـا : وحنـين والهـة كقـوس النـازع
وعفوت عمّن لم يكن عن مثله :: عفـوٌ ولـم يشـفع إليـك بشـافع
إلاّ العلـوّ عـن العقوبـة بعـدما : ظفـرت يـداك بمسـتكين خاشـع

قال: فبكى المأمون، ثم قال: علي به، فأتي به، فخلع عليه، وأمر له بخمسة آلاف درهم، وكان ينادمه، لا ينكر منه شيئاً[1].

الفضل بن الربيع يتحدث عما لاقى أيام استتاره من المأمون:

عن أبي طالوت كاتب ابن طاهر، قال: سمعت الفضل بن الربيع، يقول: لما استترت من المأمون، أخفيت نفسي حتى عن عيالي وولدي، وكنت أنتقل وحدي.

فلما اقترب المأمون من بغداد، ازداد حذري، وخوفي على نفسي، فتشددت في الاحتياط والتواري، وأفضيت إلى منزل بزاز كنت أعرفه في درب بباب الطاق، وشدد المأمون في طلبي فلم يعرف لي خبراً.

فتذكرني يوماً، فاغتاظ على إسحاق بن إبراهيم، وجد به في طلبي، فأغلظ له، فخرج إسحاق من حضرته، وجد بأصحاب الشرط، وأوقع ببعضهم المكاره، ونادى في الجانبين، من جاء به فله عشرة آلاف درهم وإقطاع غلته ثلاثة آلاف دينار في السنة، وإن من وجد بعد النداء ضرب خمسمائة سوط وهدمت داره وأخذ ماله وحبس طول الدهر، فنودي بذلك عشيًّا.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص246.

فما شعرت، إلا وصاحب الدار قد دخل علي وأخبرني الخبر، وقال: والله، ما أقدر بعد هذا على سترك، ولا آمن من زوجتي، وجاريتي، وغلامي، وأن تشره نفوسهم إلى المال، فيدلون عليك، وأهلك بهلاكك، وإن صفح الخليفة عنك، لم آمن من أن تتهمني بأني دللت عليك، فيكون ذلك أقبح وأشنع، وليس الرأي لي ولك إلا أن تخرج عني.

فورد علي ذلك أعظم مورد، وقلت: إذا جاء الليل خرجت عنك.

قال: ومن يطيق الصبر على هذا الضرر إلى الليل، فإنك إن وجدت عندي قبل الليل أهلكتني وأهلكت نفسك، وهذا وقت حار، وقد طال عهد الناس بك، فقم وتنكر واخرج.

فقلت: كيف أتنكر؟

فقال: تأخذ أكثر لحيتك، وتغطي رأسك وبعض وجهك، وتلبس قميصاً ضيقاً، وتخرج.

فقلت: أفعل.

فجاء بمقراض فأخذت أكثر لحيتي، وتنكرت، وخرجت من عنده في أول أوقات العصر، وأنا ميت خوفاً.

فمشيت في الشارع، حتى بلغت الجسر، فوجدته قد رش، وهو خال من الناس، متزلق.

فلما توسطته، إذا أنا بفارس من الجند الذين كانوا في داري في أيام وزارتي، قد قرب مني، فعرفني، وقال: طلبة أمير المؤمنين، وعدل إلي ليقبض علي.

فلحلاوة النفس دفعته ودابته، فزلق، ووقع في بعض السفن التي في الجسر، وتعادى الناس لخلاصه، وظنوا أنه زلق بنفسه.

وتشاغل عني بهم، وزدت أنا في المشي، ولم أعد لئلا ينكر حالي من يراني، إلى أن عبرت الجسر ودخلت درب سليمان.

فوجدت امرأة على باب دار مفتوح، فقلت لها: يا امرأة، أنا خائف من القتل، فأجيريني وأحقني دمي.

فقالت: أدخل، وأومأت إلى غرفة، فصعدتها.

فلما كان بعد ساعة، إذا بالباب يدق، ففتحته، وإذا زوجها قد دخل، فتأملته، فإذا هو صاحبي على الجسر، وهو مشدود الرأس يتأوه من شجة لحقته، وثيابه مغموسة بالدم.

وسألته المرأة عن خبره، فأخبرها بالقصة، وقال لها: قد زمنت دابتي وأنفذتها لتباع في سوق اللحم، وقد فاتني الغنى، وجعل يشتمني، وهو لا يعلم بوجودي معه في الدار، وأقبلت المرأة تترفق به إلى أن هدأ.

فلما صليت المغرب، وأقبل الظلام، صعدت المرأة إلي، وقالت: أظنك صاحب القصة مع هذا الرجل.

فقلت: نعم.

فقالت: قد سمعت ما عنده، فاتق الله في نفسك واخرج، فدعوت لها.

فنزلت، ففتحت الباب فتحاً رفيقاً، وقالت: اخرج، وكانت الدرجة في الدهليز، فأفضيت إلى الباب، فلما انتهيت إلى آخر الدرب وجدت الحراس قد أغلقوه، فتحيرت.

ثم رأيت رجلاً يفتح باباً بمفتاح رومي، فقلت: هذا رومي، وهو ممن يقبل مثلي.

فدنوت منه وقلت: استرني، سترك الله.

فقال: ادخل، فدخلت، فرأيته رجلاً فقيراً وحيداً، فأقمت ليلتي عنده، وبكر من غد، وعاد نصف النهار ومعه حمالان يحمل أحدهما حصيراً ومخدة، وجرار، وكيزان، وغضائر جدداً، وقدراً جديداً، ويحمل الآخر خبزاً وفاكهة، ولحماً، وثلجاً، فدخل، وترك ذلك كله عندي، وأغلق الباب.

فنزلت، وعذلته، وقلت له: لم كلفت نفسك هذا؟ فقال: أنا رجل مزين، وأخاف أن تستقذرني، وقد أفردت لك هذا، فاطبخ أنت وأطعمني في غضارة أجيء بها من عندي، فشكرته على ذلك، وأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان آخر اليوم الثالث، ضاق صدري، فقلت له: يا أخي الضيافة ثلاثة أيام، وقد أحسنت وأجملت، وأريد الخروج.

فقال: لا تفعل، فإني وحيد، ولست ممن يطرق، وخبرك لا يخرج من عندي أبداً، فأقم إلى أن يفرج الله عنك، فلست أتثاقل بك.

فأبيت للحين، وخرجت على وجهي أريد منزل عجوز بباب التبن من موالينا، فدققت الباب عليها، فخرجت، فلما رأتني بكت، وحمدت الله على رؤيتي، وأدخلتني الدار.

فلما كان في السحر، وأنا نائم، بكرت العجوز فغمزت علي بعض أصحاب إسحاق بن إبراهيم، فما شعرت إلا بإسحاق نفسه، في خيله ورجله، قد أحاط بالدار، ثم كبسها واستخرجني منها، حتى أوقفني بين يدي المأمون حافياً حاسراً.

فلما رآني سجد طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: يا فضل، أتدري لم سجدت؟ فقلت: نعم، شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك، المغري بينك وبين أخيك.

قال: ما أردت هذا، ولكني سجدت شكراً لله على ما ألهمنيه من العفو عنك، فحدثني بخبرك؟ فشرحته له من أوله إلى آخره.

فأمر بإحضار العجوز مولاتنا، وكانت في الدار تنتظر الجائزة، فقال لها: ما حملك على ما فعلت، مع إنعامه وإنعام أهله عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال: هل لك زوج أو ولد أو أخ؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط، وتخليدها في السجن.

ثم قال لإسحاق: أحضر الساعة الجندي، وامرأته، والمزين، فحضروا في مجلس واحد، فاستثبتني فيهم، فعرفته أنهم القوم بأعيانهم.

فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على فعله، فقال: الرغبة في المال، ووالله، إنه الذي أثبتني في الجيش، ولكني رغبت في المال العاجل.

فقال: أنت بأن تكون حجاماً أولى بأن تكون من أوليائنا، وأمر بأن يسلم للمزينين في الدار، ويوكل به من يعسفه حتى يتعلم الحجامة.

وأمر باستخدام زوجته قهرمانة في دور حرمه، وقال: هذه المرأة عاقلة أديبة.

قالت له: وكيف ذلك؟ قال لها: مر بي الفضل، فمددت يدي لأقبض عليه، فابتلعته الأرض.

فقالت له امرأته: الحمد لله - عز وجل - الذي كفاك أمره وأبقى دينك عليك، ولم تكن سبباً لسفك دمه، أو مكروه يلحقه.

فلما خرج، صعدت إليه، فقالت: قد سمعت، وما هذا المكان لك بموضع، فخرج إلى بعض منازل معامليه، فلما صار إليه، نبه العامل عليه، وأسلمه إلى طالبيه، فحمل إلى المأمون، فلما رآه، وسأله عن خبره، شرح له قصته، فأمر للمرأة بثلاثين ألف درهم وقال للرسول: قل لها، يقول لك الفضل: هذا جزاء لك على ما فعلته من الجميل، فردتها، وأبت قبولها، وقالت: لست آخذ على شيء فعلته لله عز وجل، جزاءً، إلا منه[1].

إسحاق الموصلي يتطفل ويقترح:

حدث حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: غدوت يوماً، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة، والخدمة فيها، فركبت بكرة، وعزمت على أن أطوف الصحراء، وأتفرج بها.

فقلت لغلماني: إن جاء رسول الخليفة، فعرفوه أني بكرت في مهم لي، وأنكم لا تعرفون أين توجهت.

ومضيت، وطفت ما بدا لي، ثم عدت وقد حمي النهار، فوقفت في شارع المخرم، في الظل، عند جناح رحب في الطريق، لأستريح.

فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً، عليه جارية راكبة، تحتها منديل دبيقي، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه، ورأيت لها قواماً حسناً، وطرفاً فاتناً، وشمائل ظريفة، فحدست أنها مغنية.

فدخلت الدار التي كنت واقفاً عليها، وعلقها قلبي في الوقت علوقاً شديداً، لم أستطع معه البراح.

فلم ألبث إلا يسيراً، حتى أقبل رجلان شابان جميلان، لهما هيأة تدل على قدرهما، راكبان، فاستأذنا، فأذن لهما، فحملني حب الجارية على أن

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص329، 330.

نزلت معهما، ودخلت بدخولهما، فظنا أن صاحب الدار دعاني، وظن صاحب الدار أني معهما.

فجلسنا، فأتي بالطعام فأكلنا، وبالشراب فوضع، وخرجت الجارية، وفي يدها عود، فرأيتها حسناء، وتمكن ما في قلبي منها، وغنت غناء صالحاً، وشربنا.

وقمت قومة للبول، فسأل صاحب المنزل من الفتيين عني، فأخبراه أنهما لا يعرفاني، فقال: هذا طفيلي، ولكنه ظريف، فأجملوا عشرته.

وجئت، فجلست، وغنت الجارية في لحن لي:

ذكرتك إذ مرّت بنا أمّ شادن : أمام المطايا تستريب وتطمح
من المولعات الرمل أدماء حرّة :: شعاع الضحى في متنها يتوضّح

فأدته أداءً صالحاً، ثم غنت أصواتاً فيها من صنعتي:

الطلول الدوارس : فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها :: فهي قفر بسابس

فكان أثرها فيه أصلح من الأول، ثم غنت أصواتاً من القديم والمحدث، وغنت في أضعافها من صنعتي، في شعري:

قل لمن صدّ عاتبا : ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذي أرد :: ت وإن كنت لاعبا
واعترفنا بما أدّعيـ : ـت وإن كنت كاذبا

فكان أصلح ما غنته، فاستعدته منها لأصحه لها، فأقبل علي رجل منهم، فقال: ما رأيت طفيلياً أصفق منك وجهاً، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت، وهذا تصديق للمثل: طفيلي ويقترح، فأطرقت، ولم أجبه، وجعل صاحبه يكفه عني، فلا يكف.

ثم قاموا إلى الصلاة، وتأخرت، فأخذت العود وشددت طبقته، وأصلحته إصلاحاً محكماً، وعدت إلى موضعي، فصليت، وعادوا، وأخذ الرجل في عربدته علي، وأنا صامت.

وأخذت الجارية العود، وجسته، فأنكرت حاله، وقالت: من مس عودي؟ فقالوا: ما مسه أحد.

قالت: بلى، والله، قد مسه حاذق متقدم، وشد طبقته، وأصلحه إصلاح متمكن من صنعته.

فقلت لها: أنا أصلحته.

قالت: بالله عليك، خذه، فاضرب به.

فأخذته، وضربت به مبدأً عجيباً، فيه نقرات محركة، فما بقي في المجلس أحد إلا وثب فجلس بين يدي.

وقالوا: بالله عليك يا سيدنا، أتغني؟ قلت: نعم، وأعرفكم نفسي أيضاً، أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإني - والله - لأتيه على الخليفة، وأنتم تشتموني اليوم، لأني تملحت معكم بسبب هذه الجارية، ووالله، لا نطقت بحرف، ولا جلست معكم، أو تخرجوا هذا المعاند.

ونهضت لأخرج، فتعلقوا بي، فلم أرجع، فلحقتني الجارية، فتعلقت بي، فلنت، وقلت: لا أجلس، حتى تخرجوا هذا البغيض.

فقال له صاحبه: من هذا كنت أخاف عليك، فأخذ يعتذر.

فقلت: أجلس، ولكني، والله، لا أنطق بحرف وهو حاضر، فأخذوا بيده، فأخرجوه.

فبدأت أغني الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي، فطرب صاحب البيت طرباً شديداً، وقال: هل لك في أمر أعرضه عليك؟ فقلت: وما هو؟ قال: تقيم عندي شهراً، والجارية لك بما لها من كسوة.

فقلت: أفعل.

فأقمت عنده ثلاثين يوماً، لا يعرف أحد أين أنا، والمأمون يطلبني في كل موضع، فلا يعرف لي خبراً.

فلما كان بعد ذلك، سلم إلي الجارية والخادم، وجئت بها إلى منزلي، وكان أهل منزلي في أقبح صورة لتأخري عنهم.

وركبت إلى المأمون من وقتي، فلما رآني، قال لي: يا إسحاق، ويحك، أين كنت؟ فأخبرته بخبري.

فقال: علي بالرجل الساعة، فدللتهم على بيته، فأحضر، فسأله المأمون عن القصة، فأخبره بها.

فقال: أنت ذو مروءة، وسبيلك أن تعان عليها، فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال: لا تعاشر ذلك المعربد السفل.

فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين.

وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لي: أحضر الجارية، فأحضرته إياها، فغنته.

فقال لي: قد جعلت لها نوبة كل يوم ثلاثاء، تغنيني من وراء الستارة، مع الجواري، وأمر لها بخمسين ألف درهم.

فربحت - والله - بتلك الركبة، وأربحت[1].

بعض صنائع البرامكة:

ومما وضع في بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال: طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلةً، وقد مضى من الليل ثلثه، فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً، وسماهما لي: أحدهما، علي بن محمد، والآخر، دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقول لك، فإنه بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى آثار دور البرامكة، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف فامض أنت وعلي ودينار حتى تردوا تلك الخرائب فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتاً فآتوني به.

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص348، 349.

قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساطٌ وكرسي حديد، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات:

ولما رأيت السيف جندل جعفراً :: ونادى منادٍ للخليفة يا يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي :: عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها. فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعاً شديداً وقال: دعوني حتى أوصي بوصية فإني لا أوقن بعدها بحياة.

ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال: حين رآه: من أنت، وبم استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم؟ قال الخادم: ونحن نستمع.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة أيادي خضرة عندي، أفتأذن لي أن أحدثك بحالي معهم؟ قال: قل.

فقال: يا أمير المؤمنين؟؟! أنا المنذر بن المغيرة، من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع ما على رأسي ورؤوس أهلي وبيتي الذي ولدت فيه، أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زي وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الجامع جماعة جلوس، فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد، فدخلت

معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحداً، وبين يديه عشرة من ولده، وإذا بأمرد نبت العذار في خديه قد أقبل من بعض المقاصير، وبين يديه مائة خادم متمنطقون، في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، مع كل خادم مجمرة من ذهب، في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام، وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن أخي هذا. فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت، وإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر، وإذا بمائة واثني عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة، على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي وقمت وجعلت أتلفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار، ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: ائتني بهذا الرجل، فأتيته، فقال: ما لي أراك تلتفت يميناً وشمالاً؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم: ائتني بولدي موسى، فأتاه به. فقال له: يا بني! هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك.

فقبض موسى ولده على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس، وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فاقبضه إليك، وأكرمه.

ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فاخرج إلى عيالك

بسلام.

فقلت: وا ويلاه، أسلب الدنانير والصينية، وأخرج على هذه الحالة؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلي فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به.

فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إلي مائة ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، ومنشور بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين، مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين، من الرشيد ما نزل أجحف بي عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل علي الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرائب دورهم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلي وأبكي على إحسانهم.

فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة.

فلما أتي به قال له: تعرف هذا الرجل؟ قال: يا أمير المؤمنين، هو بعض صنائع البرامكة.

قال: كم ألزمته في ضيعتيه؟ قال: كذا وكذا.

فقال له: رد إليه كل ما أخذته منه في مدته، وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده.

قال: فعلا نحيب الرجل، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له: يا هذا! قد أحسنا إليك، فما يبكيك؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضاً من صنيع البرامكة، لو لم آت خرائبهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين، ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم ابن ميمون: فرأيت المأمون، وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه

وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر، انتهى.

المأمون والورد:

وقال إسحاق: دخلت يوماً على المأمون في زمن الورد، فقال لي: يا إسحاق! هل قلت شيئاً في الورد؟ قلت: أقول بسعادة أمير المؤمنين.

وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتي في ذلك الوقت بشيء، فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهراً متفكراً، فلم يفتح علي بشيء، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة، وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون، ومعه سبع وردات على صينية فضة، ينتظر الإذن في الدخول بها عليه، فسألته المهلة بها قليلاً، فامتنع، سألته ثانياً، وقلت: أمهل قليلاً، ولك بكل وردة دينار.

فأجابني إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير، وأحببت أن لا يصل إليه الورد قبل وصول الشعر، وخرجت أقصد الأزقة لعلي أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطري ولو ببيت واحد، فبينما أنا كذلك وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول:

اشرب على ورد الخدود فإنه ... أزهى وأبهى، فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورد وجنة ... جمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه ... ذهبٌ بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتي، ودخلت مسجداً بالقرب منه وطلبته، فلما أقبل سألته أن يمليها علي فاعتل، وقال: إن أردت فأعطني بكل بيت عشرة دنانير، فدفعتها له واستمليتها منه ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان، وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة، فلما جسيت العود قال لجواريه: اسكتن، فقد جاء إسحاق، فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ثم أخرج إلي بدرةٌ فيها عشرة آلاف درهم، فأعدت الأبيات، فأخرج إلي بدرة أخرى، فأعدت الثالثة فأخرج إلي بدرة ثالثة، فأخذت في غير الشعر، فخرج إلي خادم وقال:

يقول لك أمير المؤمنين: لو دمت على إنشادك لدمنا على البدرة ولو إلى الليل، انتهى من حلية الكميت[1].

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه:

ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوماً، وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فقال لي: يا عباس؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز.

قال العباس: فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فلما تركوه في داري أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو؟ فقال: أنا من دمشق.

فقلت: جزى الله دمشق خيراً، فمن أنت من أهلها؟.

قال: وعمن تسأل؟ قلت: أوتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقعت لي معه قضية.

فقال: ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه؟ فقلت: ويحك! كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها، وقد خرجوا علينا حتى أن الوالي خرج في زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدور، وإذا بجماعة يعدون، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم، ومررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: يا هذا أغثني أغاثك الله؟ قال: لا بأس عليك ادخل الدار.

فدخلت، فقالت لي زوجته: ادخل تلك المقصورة.

فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل، والرجال معه يقولون هو والله عندك.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 90.

فقال: دونكم الدار فتشوها.

ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: ها هو هنا.

فصاحت بهم المرأة ونهرتهم، فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك.

فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف فقد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله.

فقلت: جزاك الله خيراً.

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكاناً من داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في أتم عيشٍ وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر.
فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني بنفسه ولا يعرف من أنا، فقال لي: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد.

قال: إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج.

فقلت له: إنك قد تفضلت علي هذه المدة، لك علي عهد الله إنني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت.

قال: فدعا بغلام أسود وقال له: أنعل الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي: ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي. فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاء في السحر، فقال: يا فلان! قم، فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها.

فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكتري به مركباً، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر اللباس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم

لي غلاماً وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون، وأعلمني بما في الصرتين أنه خمسة آلاف درهم، وشد لي الفرس الذي أنعله بسرجه ولجامه، وقال لي: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري وركب معي من يشيعني، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أقدر أن أتفرغ إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أمكنك الله من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك.

فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه قد غير عليك حالي وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي صيرك إلى ما أرى؟ قال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من ينصرف إليهم بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت بوفاء عهدك.

قال العباس: فقلت يصنع الله خيراً.

ثم أحضر حداداً في الليل وفك قيوده، وزال ما كان عليه من الأنكال، وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: علي بفرسي الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة، ثم عشرة من الصناديق، ومن الكسوة كذا وكذا.

قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لعامله في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار.

فقال له: إن ذنبي عظيم عند أمير المؤمنين وخطبي جسيم، وإن أنت احتجيت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي.

فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري.

فقال: والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت.

فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يكون، فليكن في موضع كذا وكذا، فإن أنا سلمت في غداة غدٍ أعلمته، وإن أنا قتلت وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان يثق به، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفناً.

قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك وقم.

قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين وإذا هو جالس وعليه كآبة، فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول.

فقال: لله علي عهد، لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك.

فقلت: لا والله، يا أمير المؤمنين إنه ما هرب، ولكن اسمع حديثي معه كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني، وقد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك، لا جزاك الله خيراً عن نفسك، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير؟ هلا عرفتني خبره، فكنت أكافئه عنك ولا أقصر بوفائي له؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا، وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منة أعظم من الأولى، اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتني به حتى أتولى مكافأته عنك.

قال: فأتيت إليه وقلت: ليزل عنك حزنك، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت.

فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه. ثم قام فصلى ركعتين، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين، فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى عنها، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة بغال بآلاتها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وأطلق خراجه، وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك، والله أعلم[1].

المأمون وزنبيل بوران:

ويحكى عن إسحاق الموصلي أنه قال: خرجت ليلة من عند المأمون متوجهاً إلى بيتي، فأحسست بالبول، فعمدت لزقاق، وقمت لأتمسح بالحيطان، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجاً، فقلت: إن لهذا سبباً وبقيت متحيراً في أمره، فحملني السكر وقال لي: اجلس فيه، فجلست، فلما أحس بي الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط، فإذا أنا بأربع جوار يقلن لي: انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة لم أر مثلها إلا في دار الخلافة فجلست، فما

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 91، 92.

شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت في ناحية من الجدران، وإذا بوصائف يتمشين وفي أيديهن الشمع وبعض مجامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع، فنهضت وقالت: مرحباً بك من زائر وجلست، ثم سألتني عن خبري فقلت: انصرفت من عند بعض إخواني وغرني الوقت وحرقني البول، فعمدت إلى هذا الزقاق، فوجدت زنبيلاً معلقاً، فحملني السكر على أن جلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه.

قالت: لا ضير، وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك، ثم قالت: فما صناعتك؟ قال: بزازاً ببغداد.

فقالت: هل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً ضعيفاً.

قالت: فذاكرنا شيئاً.

قلت: إن للداخل حشمةً، ولكن تبدئين أنت.

قالت: صدقت، فأنشدتني شعراً لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم، وأنا مستمع لا أدري مم أعجب من حسنها أم حسن روايتها؟ ثم قالت: أذهب ما كان فيك من الحصر؟ قلت: إي والله.

قالت: فإن رأيت أن تنشدنا.

فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع، فاستحسنت ذلك، ثم قالت: والله ما ظننت أنه يوجد في أبناء السوقة هذا، ثم أمرت بالطعام فأحضر، فجعلت تقطع وتضع قدامي، وفي المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان، ودعت بالشراب، فشربت قدحاً، ثم ناولتني قدحاً، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة والأخبار، فاندفعت أذاكرها وقلت: بلغني أن كذا وكذا، وكان رجل يقال له كذا، حتى أتيت على عدة أخبار حسان، فسرت بذلك وقالت: كثر تعجبي أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك.

فقلت: كان لي جار يحادث الملوك وينادمهم، وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت.

فقالت: لعمري، لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة.

وأخذنا في المذاكرة، إذا سكت ابتدأت هي، وإذا سكتت ابتدأت أنا حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار شوقاً إليها، فقالت: إنك من أرق الرجال، وضيء الوجه بارعٌ في الأدب وما بقي إلا شيء واحد؟ قلت: وما هو؟ قالت: لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت: والله لقديماً كنت ألفته ولم أرزقه وأعرضت عنه، وفي قلبي من حرارة، ولو كنت أحب في مثل هذا المجلس شيئاً منه لتكمل ليلتي.

قالت: كأنك عرضت.

فقلت: والله ما هو تعريض قد بدأت بالفضل، وأنت جديرة بذلك.

فأمرت بعود فحضر، وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها وجودة الضرب بالكمال الراجح، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به؟ قلت: لا.

قالت: الشعر لفلان والغناء لإسحاق.

قلت: وإسحاق هذا جعلت فداك بهذه الصفة؟ قالت: بخ بخ! إسحاق بارع في هذا الشأن.

فقلت: سبحان الله أعطي هذا الرجل ما لم يعطه أحد؟ قالت: فكيف لو سمعت هذا الصوت منه.

ثم لم تزل على ذلك حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوزٌ كأنها داية لها، وقالت: إن الوقت قد حضر، فنهضت عند قولها، فقالت: لتستر ما كنا فيه فإن المجالس بالأمانات.

قلت: جعلت فداك لم أكن أحتاج إلى وصية في ذلك.

فودعتها، وجارية بين بني يدي إلى باب الدار ففتح لي فخرجت ورحت إلى داري، فصليت الصبح ونمت، فانتهى رسول المأمون إليَّ فسرت إليه وأقمت عنده نهاري، فلما كان العشاء تفكرت فيما كنت فيه البارحة، وهذا شيء لا يصبر عليه إلا جاهل، فخرجت وجئت إلى الزنبيل، فوجدته على عادته، فجلست فيه ورفعت إلى موضع البارحة، وإذا هي قد طلعت، فقالت: لقد عاودت.

فقلت: ولا أظن إلا أنني قد ثقلت.

وأخذنا في المحادثة مثل تلك الليلة السالفة في المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر. فانصرفت إلى منزلي، فصليت الصبح، ونمت. فانتهى رسول أمير المؤمنين إليَّ فمضيت إليه وأقمت نهاري عنده، فلما كانت العشية توجه إلي مخاطباً، وقال: أقسمت عليك لتجلسن حتى أجيء وأحضر، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسي، فلما تذكرت ما كنت فيه هان علي ما يخصني من أمير المؤمنين، فوثبت مبادراً وخرجت جارياً حتى أتيت الزنبيل، فجلست فهي فرفعت إلى مجلسي، فقالت: صديقنا.

قلت: إي والله.

قالت: أجعلتها دار إقامة؟ قلت: جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة أيام، فإن رجعت بعد ذلك، فأنتم في حل من دمي.

ثم جلسنا على ذلك الحال فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لا بد أن يسألني، فلا يقنع إلا بشرح القصة فقلت: أنا أراك ممن يعجب بالغناء ولي ابن عم أحسن مني وجهاً، وأظرف قدًّا وأكثر أدباً وأطيب أرجاً، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق.

فقالت: طفيلي وتقترح.

قلت لها: أنت المحكمة.

ثم قالت: إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته.

ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت، فلم أصل إلى داري إلا ورسل أمير المأمون قد هجموا علي وحملوني حملاً عنيفاً فوجدته قاعداً على كرسي وهو مغتاظ فقال: يا إسحاق، أخروجاً عن الطاعة؟ قلت: لا والله.

قال: فما قصتك اصدقني؟ قلت: نعم في خلوة.

فأومأ إلى من بين يديه فتنحوا، فحدثته الحديث وقلت له: وعدتها بك.

قال: أحسنت فأخذنا في لذتنا ذلك اليوم، والمأمون معلق القلب بها، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا، وأنا أوصيه وأقول له: تجنب واحذر أن تناديني باسمي بحضرتها، وغن وأنا لك تبع وهو يقول: نعم، ثم سرنا إلى الزنبيل فوجدناهما اثنين، فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود،

فحضرت وأقبلت وسلمت، فلما رآها المأمون بهت في حسنها وجمالها وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار، ثم أحضرت النبيذ فشربنا، وهي مقبلة عليه مسرورة به، وهو أكثر، فأخذت العود وغنت صوتاً، ثم قالت: وابن عمك هذا من التجار، وأشارت إلي.

قلت: نعم.

قال: والله إنكما لقريبان.

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب، فصاح وقال: يا إسحاق! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: عن هذا الصوت؟ فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته، فلما فرغت من الصوت قال: انظر من رب هذه الدار؟ فبادرت العجوز وقالت: للحسن بن سهل.

فقال: علي به.

فغابت العجوز ساعة، وإذا الحسن قد حضر.

فقال له المأمون: ألك ابنة؟ قال: نعم.

قال: ما اسمها؟ قال: بوران.

قال: أمتزوجة؟ قال: لا والله.

قال: فإني أخطبها منك.

قال: هي جاريتك وأمرها إليك.

قال: قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفاً، تحمل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا.

قال: نعم. ثم خرجنا فقال: يا إسحاق لا توفق على هذا الحديث أحداً.

فسترته إلى أن مات المأمون فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي في تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار وبوران بالليل، ووالله ما رأيت أحداً من الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهماً وعقلاً والله

تعالى أعلم، انتهى من حلية الكميت [1].

المأمون والفتاة العربية:

عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون، وكان بالكوفة، فركبت للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها من النهر، ورفعتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها، فصاحت برفيع صوتها: يا أبت! أدرك فاها، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها.

قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ فقالت: أنا من بني كلاب.

قال: وما حملك أن تكوني من الكلاب؟ قالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام، يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ قال: أوعندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم.

قال: أنا من مضر الحمراء.

قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً وأعظمها حسباً وخيرها أمًّا وأباً، مما تهابه مضر وتخشاه.

قالت: أظنك من كنانة؟ قال: أنا من كنانة.

قالت: من أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخشاه.

قالت: والله أنت من بني هاشم؟ قال: أنا من بني هاشم.

قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلةً وأشرفها قبيلةً ممن تهابه هاشم وتخشاه.

قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 92، 93.

قال: فتعجب المأمون منها وطرب طرباً شديداً، ثم قال: لأتزوجن بها لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى التحق به العسكر، فنزل وأرسل خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها، وهي والدة العباس، والله أعلم[1].

أخلاق المأمون:

من محاسن الأخلاق، ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح لغلام يسقيه، وأنا نائم فينغص علي نومي، فرأيته وقد قام يتمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة خطوة، ثم رجع يتمشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش الذي أنا عليه، وخطا خطوات لطيفة لئلا ينبهني حتى وصل إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل، وقد قام يبول، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ثم جاءني وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف مبيتك؟ قلت: بخير مبيت جعلني الله فداك.

قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح للغلام فأزعجك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووهب لك سيرتهم، فهناك الله بهذه النعمة، وأتمها عليك.

فأمر لي بألف دينار وانصرفت.

حلم المأمون:

وحدث سليمان الوراق قال: ما رأيت أعظم حلماً من المأمون، دخلت عليه يوماً وفي يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس، وهو يقلبه بيده ويستحسنه، ثم دعا برجل صائغ وقال له: اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا، وعرفه كيف يعمل به، فأخذه الصائغ وانصرف ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره فاستدعى الصائغ، فأتي به، وهو يرعد وقد امتقع لونه. فقال المأمون: ما فعلت بالفص؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل، فولى وجهه عنه، حتى سكن جأشه، ثم التفت إليه وأعاد القول.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 94.

فقال: الأمان يا أمير المؤمنين.

قال: لك الأمان.

فأخرج الفص أربع قطع وقال: يا أمير المؤمنين، سقط من يدي على السندال فصار كما ترى.

فقال المأمون: لا بأس عليك، صنع به أربع خواتم، وألطف له في الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهي الفص على أربع قطع. فلما خرج الرجل من عنده، قال: أتدرون كم قيمة هذا الفص؟ قلنا: لا، قل: اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفاً، انتهى[1].

ومن حلمه أيضاً. قال يحيى: كنت أنا والمأمون يوماً في بستان ندور فيه فمشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أكون في الظل وهو في الشمس، فأمتنع من ذلك، فإذا رجعنا قال لي: والله يا يحيى لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك، حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك منها.

فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك من هول المطلع لفعلت.

ولم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف. ومن حلمه أيضاً، أنه كان له خادم يسرق طاساته التي يتوضأ فيها فقال له المأمون: إذا سرقت شيئاً فائتني بما تسرقه، فأشتريه منك.

فقال له الخادم: اشتر مني هذه، وأشار إلى التي بين يديه.

فقال: بكم؟

قال: بدينارين.

قال: على شرط أنك لا تسرقها.

قال: نعم.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 95.

فأعطاه دينارين، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئاً لما رأى من حلمه، والله أعلم.

الطفيلي الأديب والمأمون:

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته، حافظاً للأقدار، راوياً للأشعار، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة، حاذقاً في التصنيف، فائقاً في التأليف، صبيح الوجه، مقبول المشاهد، حلو الشمائل، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق، وحال دونه حائل وقدر سابق، فبقي حيناً من الدهر، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً، فضاق صدره وعيل صبره وضلت وّمقاليده، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري، منفردين عن سائر الندماء، فظهر خبرهما بذلك. وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية، ومن آخر منطقة وخفاً وسيفاً، ومن آخر برذوناً، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول أمير المؤمنين واستأذن لي عليه.

فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم، فأذن له. فلما دخل عليه، وتمثل بين يديه، قال له: سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: أنسيت الوعد، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا؟ قال المعتصم: لا والله ما نسيت ذلك، ولكن تربصت ساعة. ونمت نوماً لأتقوى بذلك على انتصاب سائر النهار.

فقال الفتى: فعجل الآن أيها الأمير، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتيه بك.

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته، ولم يتوهم إلا نه من بعض خواص المأمون، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته، وأخذ يمشي بين يديه، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون نه من خدم المعتصم، حتى نزل المعتصم، وأخذ الفتى بركابه، ودخل المجلس، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو.

فقال المأمون: أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس. وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قده وعقله، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم. فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه، وأمر المأمون بإحضار المائدة، فنصبت بأنواع الطعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم، ولمجلس الشراب انتقلوا، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة، فحضرن وأخذن في الغناء، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به، وبالغناء، ومتى قيل وفيمن قيل، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه، وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولٌ، ولم يجد للمدافعة سبيلاً، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه، ويتواصفان أمره وحاله، إذا خلا

المجلس، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا أشرف من شمائله.

فقال المعتصم: والله ما أعلم من هو، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين.

فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فقال المأمون: طفيلي، ورب الكعبة، وغضب وأمر الجواري بالنهوض، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق! كأني بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح، وما هكذا وعدتني. ثم قل: والله يا أمير المؤمنين، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة.

ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخذة أمير المؤمنين.

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟ فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت عرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا.

فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا، وإن هذا فعله معي أبداً.

فضحك المأمون تعجباً، وقال: ادخل فدخل، وأمره بالجلوس فجلس، ثم قال لك الأمان إن صدقتني.

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن، فطربوا سائر يومهم. فقال له المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً.

فقال: نعم، ثم أنشأ يقول:

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ... مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ... وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ... ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجا؟
والأذن مصغية مني إلى الصوت ... نادى: أنا فرجٌ زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال: ثم ماذا؟ قال: يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء، فوعدته بأن يرجع إلي مرة أخرى، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما.

غريب الدار ليس له صديقٌ ... جميع سؤاله: أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخصٍ ... كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله، وهي تقول:

ترفق يا غريب فكل حر ... يمر بحاله سعةٌ وضيق
وكل ملمةٍ إن أنت فيها ... صبرت لها أتيح لها طريق

ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فاقتك، فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت، ورمت إلى صدري بقرطاس، وإذا فيه عشرة دراهم، فرجعت من فوري،

فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب، فدفعت إليه خمسة دراهم، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول:

لم آتِ فعلاً غير مستحسن : جهلاً بفعل الأحسن الأملح
لكنني في حالة أوجبت :: ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة، ورفعت منزلته، وصار أقرب الناس إليه، وآخر خارج من عنده وأول داخل إليه، وسمي طفيلي المعتصم، وأنشد للمأمون يوماً يقول:

كانت لقلبي أهواء مفرقة : فاستجمعت مذ رأتك العين
تركت للناس دنياهم ودينهم :: أهوالي
وصار يحسدني من كنت أحسده : شغلاً بذكرك عن ديني ودنيائي
مولائي :: وصرت مولى الورى مذ صرت

فاستحسن المأمون الأبيات، وأمر بكتبها على الستارة، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الجارية، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها، وقد مات ولم يخلف ولداً سوى تلك الجارية، وما مات حتى تضعضع حاله، فأعلم المأمون بذلك، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما والله أعلم[1].

رقة قلب المأمون:

وسرق شاب سرقة، فأتي به إلى المأمون فأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يديه فأنشد الشاب يقول:

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 95، 96.

يدي، يا أمير المؤمنين، أعيذها : بعفوك أن تلقى نكالاً يشينها
فلا خير في الدنيا ولا راحة بها :: إذا ما شمالٌ فارقتها يمينها

وكانت أم الشاب واقفةً على رأسه، فبكت وقالت: يا أمير المؤمنين إنه ولدي وواحدي، ناشدتك الله إلا رحمتني وهدأت لوعتي وجدت بالعفو عمن استحق العقوبة.

فقال المأمون: هذا حد من حدود الله تعالى.

فقالت: يا أمير المؤمنين! اجعل عفوك عن هذا الحد ذنباً من الذنوب التي تستغفر منها.

فرق لها المأمون وعفا عنه.

المأمون ونذير الشؤم:

قال: رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر أن المأمون أشرف يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً وبيده فحمة، وهو يكتب بها على حائط قصره، فقال المأمون لبعض خدمه: اذهب إلى ذلك الرجل، فانظر ما كتب وائتني به.

فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه، وقال: ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب هذين البيتين:

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم : متى يعشش في أركانك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحي :: أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له: أجب أمير المؤمنين.

فقال الرجل: سألتك بالله لا تذهب بي إليه.

فقال الخادم: لا بد من ذلك.

ثم ذهب به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين وأعلم بما كتب قال له المأمون: ويلك، ما حملك على هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلي

والحلل والطعام والشراب والفرش والأواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي ويعجز عنه فهمي. وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن، وأنا في غاية من الجوع والفاقة، فوقفت مفكراً في أمري وقلت في نفسي: هذا القصر عامر عال، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أوما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ... نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له، غير أنه ... يزجي سواها، فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف درهم، ثم قال: هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً في دولته.

وأنشدوا في معنى ذلك:

إذا كنت في أمر، فكن فيه محسناً ... فعما قليل أنت ماض وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولةٍ ... وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

المأمون ومدعي النبوة:

ويحكى أنه تنبأ رجل في أيام المأمون، فقل ليحيى بن أكثم القاضي: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبي وإلى دعواه.

فركبا في الليل مستترين ومعهما خادم حتى صارا إلى بابه وكان مستتراً بثوبه، فاستأذنا عليه فخرج إليهما، فقال: من أنتما؟ فقالا: رجلان يريدان أن يسلما على يديك.

قال: ادخلا. فدخلا وجلس المأمون عن يمينه، يحيى عن يساره، فقال المأمون: إلى من بعثت؟ قال: إلى الناس كافة.

قال: أفيوحى إليك، أم ترى في المنام، أم ينفث في قلبك؟ قال: بل أناجي وأكلم قال: ومن يأتيك؟ قال: جبريل.

قال: فمتى كان عندك؟ قال: الساعة قبل أن تأتياني بساعة.

قال: فما أوحى إليك؟ قال: أوحى إلي أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، والذي يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى.

فقال له المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبي.

أبو نواس والغلام الجميل والقاضي:

دخل أبو نواس على القاضي يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل الوجه.

فقال الغلام: هذا مر علي وقبلني كرهاً.

ففتن به القاضي، فأنشد يقول:

إذا كنت للتخميش والبوس كارهاً ... فلا تدخل الأسواق إلا منقبا
ولا تظهر الأصداغ منم تحت طرةٍ ... وتشهر منها فوق خديك عقربا

فلما سمع الغلام، أنشأ يقول:

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا ... فأعقبني بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... إذا كان قاضي المسلمين يلوط

المأمون ويحيى بن أكثم:

يحكى أنه كان عند المأمون يوماً، فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط: يا يحيى! من ذا الذي يقول:

قاضي يرى الحد في الزناء ولا يرى ... على من يلوط من بأس

فقال له: الذي يقول:

ما أرى الجور ينقضي، وعلى الأمـ ... ـةِ والٍ منكم بني العباس

سليب العقل لا الدين سكرة القاضي ابن أكثم:

ويقال: إن المأمون شرب يوماً ومعه القاضي يحيى بن أكثم، فمال لساقي على القاضي حتى وقع سكران، فأمر المأمون أن يلقى عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت، وصنع بيتين شعراً، وقال لمغنيته: خذي العود وغني على رأسه فغنت وقالت:

وناديته وهو حي لا حراك به ... مزمل في ثياب من رياحين
فقلت: قم! قال: رجلي لا تطاوعني ... فقلت: خذ! قال: كفي لا يوافيني

فاستيقظ يحيى لرنة العود والجارية تغني البيتين فقام، وقال:

يا سيدي وأمير الناس كلهم ... قد جار في حكمه من كان يسقيني
سقاني الراح لم يمزج سلافتها ... حتى بقيت سليب العقل لا الدين

إبراهيم بن المهدي والمأمون:

قال الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي ادعى لنفسه الخلافة بالري وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً وله أخبار كثيرة.

فما حكاه قال: لما دخل المأمون الري في طلبي أثقل علي الطلب وجعل لمن دل علي وأتاه بي مائة ألف درهم، فخفت على نفسي، وتحيرت في أمري، فخرجت من داري وقت الظهر، وكان يوماً صائفاً، وما أدري أين أتوجه، فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، وخفت إن رجعت على أثري يعلموا بين فرأيت في صدر الزقاق عبداً أسود قائماً على باب داره، فتقدمت إليه، وقلت له: عندك موضع أقيم فيه ساعة من النهار؟ قال: نعم، وفتح الباب، فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد، ثم إنه أغلق الباب علي ومضى، فخفت أن يكون سمع الجعالة في حقي، وأنه عرفني ومضى ليدلهم علي، فبقيت مثل الحبة في المقلاة قلقاً ميتاً من الخوف، فبينما أنا كذلك، إذ أقبل ومعه حمال حامل كل ما أحتاج إليه من لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إلي وقال: جعلني الله فداك! أنا رجل حجام، وأنا أعرف أنك تنفر مني لما أتولاه من معيشتي، فشأنك بما

لم تقع عليه يدي.

وكان لي حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدراً ما ظننت أني أكلت مثلها قدراً، فلما قضيت أربي، قال لي: هل لك أن تشرب شيئاً فإنه يسلي الهم ويزيل الغم، ويمهد للنفس الفرح؟ قلت: ما أكره ذلك، رغبة في مؤنسته.

فأتى بقطرميز جديد وأحضر لي نقلاً وفاكهة في أوان جدد من فخار، ثم قل بعد ذلك: إن أذنت لي، جعلت فداك أن أقعد بناحية منك وآتي بشراب فأشرب مسروراً بك.

فقلت: افعل.

ففعل وشرب ثلاثاً، ثم خل إلى خزانة له: فأخرج عوداً مصلحاً، ثم قال: يا سيدي ليس من قدري أن أسألك أن تغني، ولكن قد وجب على مروءتك حرمتي، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغني لنفسك والعبد يسمع فافعل.

فقلت له: ومن أين لك أني أحسن الغناء؟ فقال متعجباً: سبحان الله! أنت أشهر من ذلك، أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن يدل عليك مائة ألف درهم.

فلما قال ذلك عظمت مروءته عندي، وعلمت أن نخوته أجل مما بذل، فتناولت العود فأصلحته، وقد مر بخاطري ذكر أهلي وولدي، فقلت:

::
وعسى الذي أهدى ليوسف أهله : وأعزه في السجن وهو غريب
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا :: فالله رب العالمين قريب
:

فقال: يا سيدي اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به.

قلت: نعم. فقال: غن لي:

::
إن الذي عقد الذي انعقدت به : عقد المكاره، فهو يملك حلها
فاصبر، فإن الله يعقب راحةً :: فلعلها أن تنجلي، فلعلها
:

فحسن عندي اقتراحه وشربت، ثم قال لي: غن لي:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفاً ... خزائنه بعد الخلاص من السجن

ففرح وشرب وشربت، وقال: غن لي:

إذا الحادثات بلغن النهى ... وكادت لهن تذوب المهج
وحل البلاء وقل العزاء ... فعند التناهي يكون الفرج

وغنيته وحسن في نفسي اقتضاؤه، وأنست به، واستظرفته، ثم قال: إن رأيت يا سيدي أن تأذن لي أن أغني ما خطر ببالي، وإن كنت من غير أهل الصناعة؟ فقلت: يكون ذلك زيادةً في أدبك ومروءتك.

فأخذ العود، ثم قال: دستور، ثم ضرب عليه، وغنى يقول:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضر بذي الهوى ... جزعنا، وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ... نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فقلت: والله ذهب عني كل ما كان عندي من الفزع وسألته أن يغني، فغنى يقول:

تعيرنا أنا قليلٌ عديدنا ... فقلت لها: إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز، وجار الأكثرين ذليل
وإنا لقوم لا نرى الموت سبةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

فوالله لقد أجاد وذهب عني كل ما كان من الفزع والجزع، واستأنست به وأخذني من الطرب ما لا مزيد عليه، وعالجني النوم قبل أوانه فنمت، ولم أستيقظ إلا بعد المغرب، وجال فكري في هذا الحجام وأدبه وظرفه، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسليني عما أنا فيه إشارة إلى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره، فقعدت وغسلت وجهي ويقظته، وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير ومصاغ لها قيمة فدفعتها إليه، وقلت له: أنت في وداعة الله وحفظه فإني ماض عنك، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك، ولك عندي، إذا أمنت، المزيد، فأعادها علي مبادراً وقال: يا سيدي! الصعلوك لا قيمة له عند أهل الرياسات، ويظنون فيه الظنون الرديئة، أفآخذ على ما وهبني الله من قربك وحلولك في منزلي ثمناً؟ لا والله، فألححت عليه، فأخذ موسى بيده وقال: والله إن راجعتني لأنحرن نفسي، فخشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلني حملها، فلما انتهيت إلى باب الدار، قال: يا سيدي إن هذا الموضع أخفى لك من غيره، وليس عندي في مؤنتك ثقلة، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك. فرجعت وسألته أن يكون منفقاً من تلك الخريطة فلم يفعل، وكان كل يوم يفعل بي مثل ما فعل في اليوم الأول.

قال: فأقمت أياماً في أطيب عيش وأهناه، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه، فتركني ومضى يجدد لنا حالنا، فلبست ثيابي وتزينت بزي النساء بالخف والنقاب، وخرجت. فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف والفزع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر، وإذا هو قد رش، ورجل قائم فأبصرني بعض من كان في خدمتي من الجند فتعلق بين وقال: طلبة أمير المؤمنين، فدفعته في صدره فوقع في الزلق وصار عبرة وتبادر الناس إليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر، ودخلت زقاقاً فوجدت باباً وامرأة واقفة فيه، فقلت: يا سيدة النساء، احقني دمي فإني رجل خائف.

فقالت: ادخل، فدخلت فأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي طعاماً. وقالت: ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق، ولو أقمت سنة ما عليك بأس، وإذا بالباب يدق، فخرجت وفتحت الباب، فإذا هو صاحبي الذي دفعته على الجسر، وهو مشدوخ الرأس ودمه يسيل على ثيابه، فقالت

له ما دهاك؟ قال: إن حديثي عجيب وأمري غريب ظفرت بالفتى وانفلت من يدي.

قالت: وكيف؟ قال: إبراهيم بن المهدي لقيته فتعلقت به فدفعني فأصابني ما ترين من حالي ولو حملته إلى أمير المؤمنين لأخذت منه مائة ألف درهم.

قال: فأخرجت له حراقاً وذروراً، وفرشت له بعد كبس جرحه فنام قليلاً وطلعت وقالت لي: أظنك صاحب القصة؟ قلت: نعم.

فقالت لي: إني خائفة عليك، ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام، ثم قالت لي: إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك فينم عليك فانج بنفسك.

فسألتها إمهالي إلى الليل. فلما دخل لبست زي النساء وخرجت منم عندها وأتيت إلى بيت مولاة لنا، فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتي وخرجت كأنه تريد كرامتي، فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام للضيافة فظننت خيراً، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلي بخيله ورجاله، والمولاة معه حتى سلمتني إليه، فرأيت الموت عياناً، وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين، فجلس مجلساً عاماً، وأمر بإدخالي عليه، فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة، فقال: لا سلمك الله، ولا حفظك ولا رعاك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ما يأمن معه عادية الدهر، وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذي عفو، فإن تأخذ فبحقك، وإن تعف فبفضل، وأنشدت أقول:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه فخذ بحقك أولا
واصفح بحلمك عنه إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

قال: فرفع رأسه إلي، فقلت مبتدراً:

أتيـــت ذنبـــاً عظيمـــاً : وأنـــت للعفـــو أهـــل
فـــإن عفـــوت فمـــن :: وإن جزيـــت فعـــدل

قال: فرق المأمون واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق محمد المعتصم وابنه العباس وجميع من حضر من خصته، وقال: ما ترون في أمره؟ فأشار الكل بقتلي، إلا أنهم اختلفوا في القتل، فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله، وإن عفوت لم نجد مثلك في العفو.

فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط في الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه وقال:

قـومي همـوا قتلـوا أمـيم أخـي :: فـإذا رميـت يصـيبني سـهمي

ثم قال المأمون: لا بأس عليك يا عم.

فقلت: ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكن أقول:

إن الـذي خلـق المكـارم حازهـا :: فـي صـلب آدم للإمـام السـابع
ملئت قلـوب النـاس منـك مهابـة : وتظـل تكلـؤهم بقلـبٍ خاشـع
مـا إن عصـيتك والغـواة تمـدني : أسـبابها إلا بنيـةً طـائع
وعفوت عمن لـم يكن عن مثلـه : عفـو، ولـم يشـفع إليـك بشـافع
ورحمـت أشـباحاً كـأفراخ القطـا :: وحنـين والـدةٍ بقلـب جـازع

فقال المأمون: لا تثريب اليوم عليك، قد عفوت عنك، ورددت عليك مالك وضياعك، فأنشدت أقول:

::
:
رددت مالي ولم تبخل علي به :: وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
أمنت منك وقد خولتني نعماً : نعم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمعي أبغي رضاك به :: والمال حتى أسل النعل من قدمي
وإن جحدتك ما وليت من نعم : إني إلى اللؤم أول منك بالكرم
::
:

فقال المأمون: إن من الكلام كلاماً كالدر، وهذا منه، وأمر لي بمالي وخلع علي، وقال: يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشار بقتلك.

فقلت: إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين، ولكن فعلت ما أنت أهله، ودفعت ما خفت أنا بما رجوت.

فقال المأمون: لقد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك.

ثم سجد المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، ثم قال: يا عم أتدري لم سجدت؟ قلت له: شكراً لله تعالى على ما أوقعك علي وملكك إياي في يدك تفعل بي ما تشاء.

فقال: أخطأت! ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمني من العفو عنك من قبل نفسي، ثم قال: وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين، فحدثني بما كان من أمرك.

فشرحت له ما جرى لي مع الحجام والجندي وزوجته والمولاة التي أسلمتني، فأمر المأمون بإحضارها، وهي في دارها تنتظر الجائزة، فلما حضرت قال لها المأمون: ما حملك على ما فعلت تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال هل لك من ولد أو زوج؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها في السجن، ثم أحضر الجندي وامرأته والحجام، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل؟ قال: رغبة في المال.

فقال: إنك أولى في أن تكون حجاماً من أن تكون خداماً، ووكل من يلزمه الجلوس في مكان الحجام، ليتعلم الحجامة، وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال: هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات، وسلم للحجام دار الجندي وما فيها، وخلع عليه وأثبته برزقه في الديوان، وزيادة ألف دينار في كل سنة، ولم يزل كذلك إلى أن مات، والله أعلم[1].

صيد الجواري:

وعن محمد بن عبد الله التميمي، قال: حدثنا أحمد بن محمد الحريري قال: كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي من الأموال ما لا يسعه الديوان، ولا تأكله النيران لكثرته، وكانت أأدب نساء بني هاشم وأفصحهن لساناً وأقولهن شعراً، فدخلت على المأمون يوماً، وكانت تحبه غاية الحب سراً، وكن المأمون جالساً في إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله، وكان قد تأنق في بنائه، وكان فيه من كل صورة في البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة، وقد فرشه ببساط من الديباج الأصفر، وأسبل عليه ستوراً من الحرير الصيني، وقد أقام فيه أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير، وقد لبسن الوشي بطرر وشعور وأصداغ، وهن بقد واحد، لا تزيد الواحدة منهن على الأخرى، أقام مائتين عن يمنيه ومائتين عن يساره، فقال: يا حمنة! هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان مع فرشه، ومثل هؤلاء الجواري مع زينتهن؟ فقالت: يا أمير المؤمنين! متعك الله به وعمره بك، فلقد أوتيت ملكاً عظيماً تستأهله لترفهك وشرفك، فإن أحببت خادمتك حمنة أجلستك في مجلس لم تجلس في مثله قط وأصادتك صيداً لم تصد مثله قط، وأسقتك شراباً لم تشرب مثله قط.

وكان عنده يحيى بن أكثم، فقال لها: يا حمنة، قد أجبتك إلى ما سألتني، ولكن لا ينفعني ولا يهناك ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكثم، فإنه لا يطيب لي مجلس إلا به.

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 99 - 101.

فقالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم ضربت يدها في جيبها، فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر محشوة مسكاً أذفر، فدفعتها إلى يحيى، وقالت: يا يحيى، إن الأجير لا يعمل حتى يستوفي أجرته، وهذه أجرتك مني فكن مستحثاً لي أمير المؤمنين غداً عند الزوال، في المسير إلى منزل خادمته؟ فقال: حباً وكرامةً.

ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاج إليه للمأمون وغيره، فلما كان من الغد جلس المأمون في مجلس السلام، فلما زالت الشمس وصارت في كبد السماء قال يحيى: يا أمير المؤمنين الحاجة التي عرضت عليك بالأمس. ففطن المأمون لذلك، وقام من مجلسه ولبس ثياب التجار، ولبس يحيى مثل ذلك، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين، وركباهما حتى أتيا دار حمنة، فدقا الباب دقاً خفيفاً، فسمعته فأقبلت بنفسها، حتى فتحت الباب وأقبلا يمشيان جميعاً حتى انتهيا إلى بيت في بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش، وإذا في صدر البيت أربعة أسطر منقوشة بالدر وصنوف الجواهر وهي:

::
:
ما سرني أن فؤادي، ولا :: أن لساني بالمدام حلا
وأن لي ملك بني هاشمٍ : يجبى إلى أولاً أولا
إن لم أشاهدك أيا مالكي :: تأتي إلى بيتي كذا مقبلا
يا سائلي روحي بلا علةٍ : أنت المعافى، وأنا المبتلي
::
:

فقال المأمون: يا يحيى، ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت.

وإذا فرشه أرمني محفور منقوش باللآلي وإذا فوق الأرمني مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش، وفي البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف في أواني الذهب والفضة، وهي تفوح منه روائح لا يدرى ما هي من طيبها، ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواع الرياحين حول البيت، فقالا: إن هذا إلا سحر

يؤثر.

ثم دعت لهما بمائدة من الجزع اليماني قوائمها من قطعة واحدة، فوضت وقدمت عليها الألوان الغريبة، فقال المأمون: ما طعمت مثل هذا الطعام قط.

ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية، والبلور، فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام، فهي تحكي الهواء لرقتها والياقوت لحمرتها والزنجبيل لحدتها، ووضعت بين أيديهما مع أقداح وأنطال تشاكل ذلك، فقال المأمون: والله! ما رأيت مثل هذا قط.

ثم أخرجت جاريتين عليهما جباب الوشي الكوفي المنسوج بالذهب، وعلى رأسيهما مقانع رشيدية وتيجان من الذهب مكللة بالجوهر، فجلستا وفي حجريهما العيدان المبسوطة الموزونة، فحركتا الأوتار وغنتا بصوت شجي مليح، من أنواع الأغاني وغرائب الأصوات، فقال المأمون: هذه الجنة مما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر.

فقال يحيى: وقد بقي لنا يا أمير المؤمنين، شرط آخر.

فقال: وما هو يا يحيى؟ قال: الصيد، يا أمير المؤمنين.

قال: صدقت يا يحيى، ثم قال: يا حمنة، ما فعل الصيد؟ فقالت: قوما إليه.

فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستاناً لم ير مثله، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت والقمري والهزار والطواويس، فكانت الأطيار تغني من رؤوس الأشجار، وتغرد بالسر والإجهار، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الأنوار، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبتها وأحسن، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف، وفي وسطهن مناطق الذهب الأحمر، وتقدمت إليهن وقالت لهن: إذا رأيتن المأمون ويحيى، تعادين ما بين الأشجار. فلما دخل المأمون ويحيى لابستان، فعلن ما كانت أمرتهن، فتضاعف السرور على المأمون،

وأعجب بذلك عجباً شديداً، ثم قال ليحيى: هذا الصيد.

فقال: يا أمير المؤمنين! رأيك؟ فقال المأمون: لو كان لنا كلب لا صطدنا هؤلاء.

فقال يحيى: أنا كلبك، يا أمير المؤمنين.

فعد المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية، فقالت حمنة: سألتك بحق أجدادك إلا ما خليت عن الجواري لا لبخل أبخل بهن عليك، وقد فهمت المعنى فيه.

وقد كانت حمنة تغار على المأمون فخلى عن الجواري، وقال ليحيى: دونك والصيد إذن أنت محل.

فقال يحيى: لو كان لي كلب لاصطدت من هؤلاء.

فقال المأمون: أنا كلبك.

فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض، وعد خلفهن، فأخذ منهن خمسة فقالت حمنة: يا يحيى لك الخمسة ولا غيرة لي عليك، وإنما أغار على المأمون لحاجتي إليه.

فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت الهوى الغالب في حماليق عينيها، ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويجك إياها إن رأيت ذلك.

فقال المأمون: أنا بريء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنتف من جدي العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها، ثم قال: يا يحيى اخطب خطبة النكاح.

فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار، وأقطعها مائة من منتخبات الضياع، فحمدت حمنة الله سروراً بما ظفرت من تزويج المأمون إياها، وأمرت ليحيى بعشرة آلاف دينار، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه في تلك الليلة، فواقعها فحملت بالعباس ابنه، انتهى[1].

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 102، 103.

حيل الجواري:

حكي أن المأمون كان مشغوفاً بحب جارية يقال لها نسيم، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال، وكان لا يفارقها في الحضر ولا في السفر، ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها، وأعرض عنها، فاغتمت ولم تجد حيلة في استعطافه، وكانت لها جارية رومية أحسن منها في العقل والأدب، وكتمت أمرها عن المأمون، فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف، ففصد، فحصل له الشفاء، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة، ومعها جام بلور، وغطته بمنديل ديبقي مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحةً ... ألبسك الله به العافية
فاشرب بهذا الجام يا سيدي ... مستمتعاً بهذه الجارية
واجعل لمن أهداكها زورةً ... تحظى بها في الليلة الثانية

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية، ثم بعث لها يقول: نعم، وفي هذه الليلة، ثم رضي على نسيم وواصلها بعد ذلك[1].

المأمون وزبيدة أم الأمين:

حكي أن المأمون مر يوماً على زبيدة أم الأمين، فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه، فقال لها: يا أماه، أتدعين علي لكوني قتلت ابنك وسلبته ملكه؟ قالت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: فما الذي قلته؟ قالت: يعفيني أمير المؤمنين.

فألح عليها وقال: لا بد أن تقوليه؟ قالت له: قلت، قبح الله اللجاجة.

قال: وكيف ذلك؟ قالت: لأني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا، فغلبني، فأمرني أن أتجرد من أثوابي

(1) المصدر السابق، ص 102 - 103.

وأطوف القصر عريانة، فاستعفيته، وبذلت له أموالاً لا تحصى، فلم يعف عني. فتجردت من أثوابي وطفت القصر عريانة، وأنا حاقدة عليه، ثم عاودنا اللعب فغلبته فأمرته أن يذهب إلى المطبخ، فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه، فنزل لي عن خراج مصر والعراق، أبيت وقلت: والله لتطأنها، فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ، فلم أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أشوه خلقة من أمك مراجل، فأمرته أن يطأها فوطئها فعلقت منه بك، فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه.

فولى المأمون وهو يقول: قاتل الله اللجاجة، أي التي لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر، انتهى[1].

المأمون والشاعر:

وأتى شاعر المأمون فقال: لقد قلت فيك شعراً، فقال: أنشدنيه. فقال:

حياك رب الناس حياكا : إذ بجمال الوجه رقاكا
بغداد من نورك قد أشرقت :: وورق العود بجدواكا

قال: فأطرق المأمون ساعة، وقال: يا أعرابي، وأنا قد قلت فيك شعراً، وأنشد يقول:

حياك ربُّ الناس حياكا : إن الذي أملت أخطاكا
أتيت شخصاً قد خلا كيسه :: ولو حوى شيئاً لأعطاكا

فقال: يا أمير المؤمنين، الشعر بالشعر حرام، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب.

فضحك المأمون وأمر له بمال، انتهى.

إبراهيم بن المهدي وصاحبة المعصم:

وروى ابن عامر الفهري عن أشياخه قال: أمر المأمون أن يحمل إليه

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 102، 103.

من أهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالندقة،فحملوا إليه، فمر بهم طفيلي، فرآهم مجتمعين، فظن خيراً ومضى معهم إلى الساحل وقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فانسل ودخل الزورق وقال: لا شك إنها نزهة، فلم يكن إلا يسيرًا، وقد قيد القوم، وقيد معهم. فعلم أنه وقع فيما لا طاقة له به، ورام الخلاص، فلم يقدر، وساروا إلى أن وصلوا بغداد وأدخلوا على المأمون، فاستدعى بهم بأسمائهم واحداً بعد واحد، وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه، حتى لم يبق إلا الطفيلي، وفرغت العشرة فقال المأمون للموكل: من هذا؟ فقال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، غير أننا رأيناه معهم، فجئنا به.

فقال: يا أمير المؤمنين. امرأته طالقة إن كان يعرف من أحوالهم شيئاً، ولا يعرف غير لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، وإنما رأيتهم مجتمعين، فظننت أنها وليمة يدعون إليها، فلحقت بهم.

فضحك المأمون وقال: أوقد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل؟ لقد سلم هذا الجاهل من القتل، ولكن يؤدب، حتى لا يعود إلى مثلها.

وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً، فقال: يا أمير المؤمنين، هبه لي، وأنا أحدثك عن نفسي، فيما وقع لي في التطفل من العجب.

فقال: وهبته لك، هات حديثك.

فقال: يا أمير المؤمنين خرجت متنكراً يوماً أنظر إلى سكك بغداد، فاستهوى بي الطرب والتفرج فانتهى بي المسير إلى موضع شممت فيه رائحة طعام وأبازير قد فاحت، وهفت نفسي إليها ووقفت، يا أمير المؤمنين، لا أقدر على المشي، فرفعت بصري، وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه، فبقيت حائراً، ونسيت رائحة الطعام، بذاك الكف، فأخذت في عمل الحيلة إلى الوصول إليها، فإذا بجانب المكان خياط، فسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت: يا سيدي! لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من البزازين.

فقلت: ما اسمه؟ فقال: فلان.

قلت: هو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم، وأظن أن عنده اليوم أصحابه، تجار مثله.

فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان فقال لي: هذان ندماؤه.

فقلت له: ما اسمهما وما كنيتهما؟ فقال لي: فلان الفلاني وفلان الفلاني.

فحركت وراءهما رجلي، فلحقتهما فقلت: جعلت فداءكما، استبطأكما فلان أعزه الله، ولم أزل معهما، حتى أتيت البيت، فدخلت ودخلا، فلما رآني صاحب البيت بينهما لم يشك في أني معهما فرحب بي وأجلسني في أفضل الأماكن ثم جيء بالمائدة ونقلت إليها الألوان، فقلت في نفسي: هذه ألوان قد من الله علي ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمعصم، ثم جيء بالماء فغسلنا أيدينا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أظرف، ورأيت صاحب المكان يتلطف بي ويقبل علي لظنه أني ضيف لأضيافه، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الظرف وحسن الهيئة، فسلمت من غير خجل ولا احتشام، وجلست وأتي بعود فجسته أحسن جس، وإذا هي حاذقة في الصناعة وغنت تقول:

توهمها فكري، فأصبح خدها : وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي، فآلم كفها :: فمن ضم كفي في أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالي، فطربت لحسن شعرها وحذقها ثم غنت تقول:

أشرت إليها: هل عرفت مودتي : فردت بطرف العين أني على العهد
فجادت عن الإظهار عمداً بسرها :: وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر، فضحكت لما أصابني من الطرب الذي لم أملك نفسي معه ثم غنت تقول:

أليس عجيباً أن بيتاً يضمنا :: وإياك لا نلهو ولا نتكلم

سوى أعين تبدي سرائر أنفسٍ : وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب :: وتكسير أجفان وكف تسلم
:

فزاد حسدي لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر لأنها لم تخرج عن المعنى وقلت: بقي عليك يا جارية شيءٌ، فرمت العود من يدها، وقالت: متى كنتم تحضرون الغناء مثل هذا؟ فندمت على ما كان مني ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا علي، فقلت في نفسي: فاتني جميع ما أملت، وأحببت أن أتلافى قضيتي فقلت: أثم عودٌ غير هذا؟ قالوا: نعم فأحضروا عوداً، فأصلحت ما أردت إصلاحه ثم قلت:

ما للمنازل لا تجيب حزيناً :: أصممن أم قد بالبلاء بلينا
:

فما أتممت شعري حتى وثبت الجارية إلي، وانكبت على يدي تقبلها وتقول: المعذرة إليك يا سيدي، والله ما علمت مكانك، ولا سمعت بهذه الصناعة من أحد، ثم زادوا إكرامي وطربوا غاية الطرب، فشربت عدة أقداح، ثم غنيتهم أبياتاً فرأيت من طربهم شيئاً عظيماً حتى قلت إن أرواحهم، فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة، حتى تراجعوا إلى عقولهم فعنيتهم وقلت:

هذا محبك مطوياً على كمده :: وجداً، وأدمعه تجري على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته :: مما به واليد الأخرى على كبده
يا من رأى كلفاً في حبه دنفاً :: كانت منيته في عينه ويده
:

قال: فجعلت الجارية تصيح وتقول: هذا والله الغناء والذي كنا فيه ليس بشيء، وشرب القوم فلما جاءهم البسط، وأخذ المجلس منتهاه أمر صاحب البيت عبدين له أن يحفظا النديمين إلى منزلهما، وخلوت معه. فقال: والله يا سيدي ذهب ما مضى من عمري باطلاً حيث لم أعرفك قبل يومي هذا فبالله يا مولاي من أنت؟

فجعلت أرد عليه، وهو يقول ويقسم علي حتى أعلمته من أنا على

الحقيقة، فلما سمع ذلك قام تعلى قدميه وقال: ما عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك، وقد أصابني من الدهر نعم لا أقوم بشكرها، ثم قال: أترى هذا يقظة أم مناماً، أقسمت أني لا أزال هذه الليلة قائماً إلى أن تأذن لي، فإني أحقر من أن أجالس الملوك.

فأقسمت عليه بأن يجلس ثم أخذ في الكلام وجعل يعرض علي السبب الذي أوجب حضوري عنده بألطف تعريض فأخبرته بأمري على الحقيقة ولم أخف شيئاً، ثم قلت له: الطعام قد نلت منه بغيتي، وبقي الأمر الآخر، فوثب إلى باب القاعة، وقال: كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا من المخدع، ثم استدعى بهن وجعل يقول: يا فلانة، وهن يخرجن واحدة بعد واحدة، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتت أربعون امرأة.

فقال: والله ما بقي إلا أختي، وها أنا مخرجها إليك.

فقلت: افعل.

فقال: حبًّا وكرامة، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها، فإذا هي التي رايتها، قلت: هذه الحاجة، فأمر غلمانه لوقته أن يأتوا بعشرة شهود، ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفاً أخرى، فلما حضروا قال لهم: هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة، وأشهدكم أني قد زوجتها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم.

فقلت: قبلت الزواج.

ثم دفع الألف التي كان خرجها لهم، فشكروا له ودعوا وانصرفوا. ثم قال: يا سيدي أمهد لك بعض البيوت، تنام مع أهلك.

فأعجبني ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها في داره. فقلت له: بل اجعلها في عمارية واحملها إلى منزلي، فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك، يا أمير المؤمنين.

فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال: لله دره ما أكرمه، والله ما سمعت بمثله قط، ثم أطلق الطفيلي وأمر بإحضار الرجل واستنطقه، فأعجبه حسن منطقه وعقله وأدبه فصيره من جملة خواصه ومنادميه، والله

أعلم[1].

الذكاء والفهم:

ومما جاء في الذكاء والفهم ما حكي عن المأمون أنه غضب على عبد الله ابن طاهر، وشاور أصحابه في الإيقاع به، وكان قد حضر في ذلك المجلس صديق له فكتب إليه كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا موسى. فلما فضه ووجد ذلك تعجب وجعل يطيل النظر إليه ولا يفهم معناه، وكانت له جارية واقفة على رأسه فقالت له: يا سيدي، إني أفهم معنى هذا. فقال: وما هو؟ قالت: إنه أراد قوله تعالى:{ى ى ي ي □ □} [القصص: ٢٠].

وكان قد عزم على الحضور إلى المأمون، فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون في عدم الحضور فكان سبب سلامته.

وأحسن من ذلك ما ذكره ابن خلكان قال: إن بعض الملوك غضب على بعض عماله فأمر وزيره أن يكتب له كتاباً يشخصه به، وكان للوزير بالعامل عناية، فكتب إليه كتاباً وكتب في آخره، إن شاء الله تعالى. وجعل في صدر النون شدة. فعجب العامل كيف وقعت هذه الحركة من الوزير إذ من عادة الكتاب ألاَّ يشكلوا كتبهم، ففكر في ذلك فظهر له أنه أراد: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فكشط الشدة وجعل مكانها ألفاً وختم الكتاب وأعاده. فلما وقف عليه الوزير سر بذلك وفهم أنه أراد:{ب ب ب پ پ پ پ} [المائدة: ٢٤][2].

مجادلة المأمون للخراساني المرتد:

ولما دخل عليه المرتد الخراساني وقد كان حمله من خراسان حتى وافى به العراق قال له المأمون

لأن أستحييك بحق أحب إليَّ من أن أقتلك بحق ولأن أقبلك بالبراءة أحب إليَّ من أن أدفعك بالتهمة قد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا وكنت فيها أتيح وأيامك أطول فاستوحشت مما كنت به آنسا ثم لم تلبث أن رجعت

(1) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 105.
(2) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 127.

عنا نافرا فخبرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من الفك القديم وأنسك الأول فإن وجدت عندنا دواء لدائك تعالجت به والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة وإن أخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة فإن قتلناك بحكم الشريعة أو ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة وتعلم أنك لم تقصر في اجتهاد ولم تفرط في الدخول في باب الحزم قال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد وتكبير التشريق، ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يؤثم ومن أذن مثنى وأقام فرادي لم يحوب لا يتعايرون ولا يتعايبون أنت ترى ذلك عيانًا وتشهد عليه تبيانًا والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقا على تأويله كما يكون متفقا على تنزيله، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألاَّ ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل وليس على هذا بنى الله الدنيا.

قال المرتد: أشهد أن الله واحد لا ند له ولا ولد وأن المسيح عبده وأن محمدًا صادق وأنك أمير المؤمنين حقا.

فأقبل المأمون على أصحابه فقال: فروا عليه عرضه ولا تبزوه في يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه انه أسلم رغبة ولا تنسوا بعد

نصيبكم من بره وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه [1].

دفاع المأمون عن ايقاع الملوك بخاصتهم:

قال أحمد بن أبي داود قال لي المأمون: لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم وبين صنائعهم وبطانتهم وذلك أنهم يرون ظاهر حرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة في ماله أو رغبة في بعض ما لا تجود النفوس به ولعل الحسد والملال وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك وهناك خيانات في صلب الملك أو في بعض الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة ولا معروف عند أكثر الخاصة [2].

عند تشابه الأسماء:

ومن حق الملك، إذا دخل عليه رجل، وكان اسم ذلك الرجل الداخل أحد صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، أن يكني عنه، ويجيب باسم أبيه؛ كما فعل سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية، فقال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة! وكما قال السيد بن أنس الأزدي، وقد سأله المأمون عن اسمه، فقال: أنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد، وأنا ابن أنس! [3].

فأجد الغنى:

حدث عمرو بن سعيد بن سلم الباهلي، قال: كنت في حرس المأمون بحلوان حين قفل من خراسان أو حين قفل من العراق، - أبو علي يشك - قال القاضي: والصواب قفل من خراسان أو قفل إلى العراق، والقفول

(1) ابن الجوزي، البيان والتبيين، ص 558.
(2) ابن الجوزي، البيان والتبيين، ص 559.
(3) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك،18/1.

الرجوع لا ابتداء السفر، والمأمون رجع من خراسان إلى العراق، بعد قتل الأمين واستتباب الخلافة له، قال: فخرج لينظر إلى العسكر في بعض الليل، فعرفته ولم يعرفني فأغفلته، فجاء من ورائي حتى وضع يده على كتفي، فقال لي: من أنت: قال: عمرو عمرك الله، ابن سعيد أسعدك الله، ابن سلم سلمك الله، فقال: أنت الذي كنت تكلؤنا في هذه الليلة؟ فقلت: الله يكلؤك يا أمير المؤمنين، فأنشأ المأمون يقول:

::
إن أخاك الحق من يسعى معك : ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدعك :: فرّق من جميعه ليجمعك
:

ثم قال: يا غلام! أعطه لكل بيت ألف دينار، فوددت أن تكون الأبيات طالت علي فأجد الغنى، فقلت: يا أمير المؤمنين وأزيدك بيتاً من عندي، فقال: هات، فقلت:

وإن غدوت ظالماً غدا معك

فقال: أعطه لهذا ألف دينار، فما برحت من موقفي حتى أخذت خمسة آلاف دينار [1].

شعر يعزل قاضياً عن القضاء:

حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقري، قال: أخبرنا مسبح بن حاتم، قال: أخبرني يعقوب بن إسرائيل، قال: أخبرني محمد بن علي بن أمية، قال: كنا بحضرة المأمون بدمشق فغنى علويه:

::
برئت من الإسلام إن كان ذا : أتاك به الواشون حقاً كما قالوا
الذي :: إلي تواصوا بالنميمة واحتالوا
ولكنهم لما رأوك سريعةً : ينالون من عرضي ولو شئت ما
فقد صرت أذناً للوشاة سميعةً :: نالوا
:

فقال المأمون لعلويه: لمن هذا الشعر؟ قال: للقاضي، قال: أي قاض؟ قال: قاضي دمشق، فأقبل على أخيه المعتصم، فقال له: يا أبا إسحاق

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،54/1.

اعزله، قال: قد عزلته، قال: فليحضر الساعة، فأحضر شيخ خضيب ربعة من الرجال، فقال له المأمون من تكون؟ فنسب نفسه، فقال: تقول الشعر؟ قال: قد كنت أقوله، قال: يا علويه أنشده الشعر فأنشده، فقال: هذا شعرك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وعبيده أحرار وماله في سبيل الله إن كان قال شعراً غلا منذ ثلاثين سنة وإلا في زهد أو معاتبة صديق، قال: يا أبا إسحاق اعزله، فما كنت لأولي الحكم بين المسلمين من يبدأ في هزله وجده بالبراءة من الإسلام، ثم قال: اسقوه، فأتي بقدح فيه شراب فأخذه بيده وهي ترعد، ثم قال: يا أمير المؤمنين! الله الله ما ذقته قط، قال: أفحرام هو؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: أولى لك بها، أي نجوت. ثم قال لعلويه: لا تقل برئت من الإسلام، ولكن قل:

حرمتَ منائي منك إن كان ذا :: أتاك به الواشون حقاً كما قالوا
الذي :

قال محمد بن الحسن المقري: هذا القاضي هو عمر بن أبي بكر الموصلي، روى عنه الزبير بن بكار وإبراهيم بن المنذر[1].

المأمون يترك جاريته الحبيبة إلى بلاد الروم:

لما وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف به امرأة من الكمال والجمال، فبعث في شرائها فأتى بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هم بلبس درعه خطرت بباله فأمر فأخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به، فقالت: ما هذا: قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم. قالت: قتلتني والله يا سيدي، وجرت دموعها على خدها كنظم اللؤلؤ، وأنشأت تقول:

::
سأدعو دعوة المضطر ربا : يثيب على الدعاء ويستجيب
لعل الله أن يكفيك حرباً :: ويجمعنا كما تهوى القلوب
:

فضم المأمون إلى صدره وأنشأ متمثلاً يقول:

فيا حسنها إن يغسل الدمع :: وإذ هي تذري الدمع منها
كحلها : الأنامل

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،60/1، 61.

صبيحة قالت في العتاب قتلتني :: وقتلي بما قالت هناك تحاول

ثم قال لخادمه: يا مسرور احتفظ بها وأكرم محلها وأصلح لها كل ما تحتاج إليه من المقاصير والخدم والجواري إلى وقت رجوعي، فلولا ما قال الأخطل حين يقول:

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم :: دون النساء ولو باتت بأطهارِ

ثم خرج فلم يزل يتعهدها ويصلح ما أمر به، فاعتلت الجارية علة شديدة أشفق عليها منها وورد نعي المأمون، فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء وتوفيت، وكان مما قالت وهي تجود بنفسها:

إن الزمان سقانا من مرارته :: بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارةً فأضحكنا :: ثم انثنى تارة أخرى فأبكانا
إنا إلى الله فيما لا يزال لنا :: من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا نراها ترينا من تصرفها :: ما لا يدوم مصافاة وأحزانا
ونحن فيها كأنا لا نزايلها :: للعيش أحياؤنا يبكون موتانا[1].

اعتذارٌ بليغٌ لدى المأمون:

حدثنا الحسين بن القاسم بن جعفر الكوكبي، قال: حدثنا أبو الفضل العباس بن الفضل الربعي، قال: حدثنا أبي وإبراهيم بن عيسى، قالا: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون - وقد كانت ضياعه حيزت وقبضت - فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وابن دولتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن لي في الكلام؟ قال: نعم.

فتكلم فقال: الحمد لله رب العالمين، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم،

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 73/1، 74.

وصلى الله على ملائكته المقربين، وعلى محمد خاتم النبيين، ونستميح الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أقصانا وأدنانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك وفي أثرك من أعمارنا وآثارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو دياره، ولا يتهدم مساره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ظله، ما دمت ظل الله في رعيته، والأمين على عباده وبلاده.

يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك وفضلك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاور الغوائب، وسهام المصائب، وكلب الدهر، وذهاب الوفر، وفي نظر أمير المؤمنين ما فرج كربة المكروب، وبرد غليل الملهوف.

ثم إنه تقدم من رأى أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطاهرين، ونوافل أسلافه الراشدين، ما الله ولي الخيرة فيه لأمير المؤمنين، وإن عبد الملك بن صالح قدم الجزيرة حين قدمها والحرب لاقح، والسيف مشهور، والشام قد نفل أديمه، وتحطمت قرونه، والسفياني قد استعرت ناره، وكثرت أنصاره، ولبس للحرب لباسها، وأعد لها أحلاسها، وكلنا يومئذٍ في ثوب القلة والصغار، بين حربٍ دائرةٍ رحاها، وفتنةٍ تصرف بأنيابها، فكأنا نهزة دواعيها، وغرض راميها، إذا ثارت عجاجةٌ من عجاجها لم تنجل إلا عن شلو مأكول، أو دمٍ مطلول، أو منزلٍ مهدوم، أو مالٍ مكلوم، أو قلبٍ يجف، أو عين تذرف، أو حرمةٍ حرى، أو طريدة ولهى، قد أتعس الله جدها، تهتف بسيدها أمير المؤمنين من تحت رحا الدهر، وكلكل الفقر، وتدعو الله بإلباس الصبر، وإعداد النصر، فالحمد لله المتطول على أوليائك يا أمير المؤمنين، إعزاز نصرك، المبلغهم اليوم الذي كانوا يأملون، والأمد الأقصى الذي كانوا ينتظرون.

ثم إني قمت هذا المقام متوسلاً إليك بآبائك الطاهرين، بالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ربيع السنين، والمنصور نكال الظالمين، ومحمدٍ خير المحمدين بعد خاتم النبيين والمرسلين، وبعلي زين العابدين، وبعبد الله ترجمان القرآن ولسان الدين، وبالعباس وارث سيد المرسلين، مزدانا إليك بالطاعة التي أفرغ الله عليها غصني، واحتنكت بها سني، وسيط بها

لحمي ودمي، متعوذاً من شماتة الأعداء، وحلول البلاء، ومقارنة الشدة بعد الرخاء.

يا أمير المؤمنين! قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي وبينهما من الرضاع والنسب ما قد علم أمير المؤمنين، فكان ذلك له خصوصاً ولبني أبيه عموماً، فسبق به بني أبيه، وفات به أقربيه، وهو صاحب الجعدي الناجم في مصر، حين اجتث الله أصله، وأيبس فرعه، وصرعه مصرعه، وهو صاحب عبد الله بن علي حين دعا الشيطان أولياءه فأجابوه، ورفع لهم لواء الضلالة فاتبعوه. وهو صاحب عيسى بن موسى حين رمى الخلافة ببصره، وسما إليها بنظره، ومشى إليها البخترى، ولبس لباس ولاة العهود، حتى أثبت الله الحق في نصابه، وأقره في قرابه.

يا أمير المؤمنين! الدهر ذو اغتيال، وقد تقلب بنا حالاً بعد حال، فليرحم أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز المحجوبات الكبار، واللاتي سقاهن الدهر كدراً بعد صفوٍ، ومراً بعد حلو، وهنيئاً نعم آبائك اللاتي غذتنا صغاراً وكباراً، وشباباً وأمشاجاً في الأصلاب، ونطفاً في الأرحام، وقربنا بحيث قربنا الله منك في القرابة والرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، وإن وجوهنا قد عنت لموجدتك، فأقلنا عثرة عاثرنا، وعلى الله الملي الجزاء، وإن الحق في يدك، فهب لنا ما قصرنا فيه من ترك الرمم البالية، للأمم الخالية، منا في طاعة آبائك، فقد مضوا متمسكين بأقوى وسائلها، معتصمين بأقوى حبائلها، يوالون فيها البعيد الجنيب، وينادون فيها القريب الحبيب، على ذلك مضوا وبقينا حتى يرثنا الله عز وجل، وهو خير الوارثين.

يا أمير المؤمنين! إن الله عز وجل سهل بك الوعور، وجلى بك أن تجور، وملأ من خوفك القلوب والصدور، وجعل اسمك حبلاً كثيفاً، وجبلاً منيفاً، يردع بك الفاسق، ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عز وجل عنك بالعفو والإحسان، فإن كل إمامٍ مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا تنقطع بالمزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين! إنه لا عفو أفضل من عفو إمامٍ قادرٍ على مذنبٍ عاثر، وقد قال الله عز وجل:{ڈ ڈژ ژ ڑ ڑ ک ک ک} [النور: ٢٢].

حاط الله أمير المؤمنين بستره الضافي، وصنعه الكافي، ثم قال:

أمير المؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قربى وليس لهم بلاد
هم الصدر المقدم من قريش ... وأنت الرأس يتبعك العباد
فقد طابت لك الدنيا ولذت ... وأرجو أن يطيب لك المعاد

فقال المأمون: يفعل ذلك بمشيئة الله، وأسأله التوفيق في الرضا عنك، والإجابة إلى ما سألت، وأن يعقب ذلك محبوباً بمنه، وجميل عادته في مثله.

وأمر برد ضياعه، وأحسن جائزته، وقضى حاجاته[1].

معنى إذا سرقت فاسرق درة:

قال أبو نصر محمد بن يحيى بن طاهر الخزاعي المروزي،: سمعت عبد الله بن منصور بن طلحة، يقول: سمعت عمي عبد الله بن طاهر، يقول: سألني المأمون أمير المؤمنين، فقال: يا أبا العباس! ما معنى إذا سرقت فاسرق درة، وإذا زنيت فازن بحرة، فقلت: أويخبرني أمير المؤمنين، قال: ليس هذا حثاً على الزنى، ولا على السرقة، ولكن إذا رمت الزنى من الحرة تعذر عليك، وإذا رمت السرقة للدرة تعذر عليك لأنها مصونة فلا تقدر عليها[2].

رجل يعاب من لا يصطنعه:

قال أبو سهل الرازي،: لما دخل المأمون بغداد تلقاه أهلها، فقال له رجلٌ من الموالي: يا أمير المؤمنين! بارك الله لك في مقدمك، وزاد في نعمك، وشكرك عن رعيتك، فقد فقت من قبلك، وأتعبت من بعدك، وأيأست أن يعتاض منك، لأنه لم يكن مثلك، ولا علم شبهك، أما فيمن

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 156/1 - 157.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 179/1.

مضى فلا يعرفونه، وأما فيمن بقى فلا يرتجونه، فهم بين دعاءٍ لك، وثناءٍ عليك، وتمسكٍ بك، أخصب جانبك، واحلولى لهم ثوابك، وكرمت مقدرتك، وحسنت مبرتك، ولانت نظرتك، فجبرت الفقير، وفككت الأسير، وأنت كما قال الشاعر:

ما زلت للبذل للنوال وإط :: لاق لعانٍ بجرمه غلق
حتى تمنى البزاة أنهم :: عندك أمسوا في القد والحلق

فقال المأمون: مثلك يعاب من لا يصطنعه، ويعر من يجهل قدره، فاعذرني في سالفك، فإنك ستجدنا في مستأنفنا.

بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول:

دخل المأمون ديوان الخراج فمر بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: الناشئ في دولتك وخريج أدبك يا أمير المؤمنين المتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء، فقال له المأمون: يا غلام بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر أن يرفع عن مرتبته في الديوان، وأمر له بمائة ألف درهم[1].

خبر زيد بن موسى المعروف بالنار:

قال زيد بن موسى بن جعفر: لما أدخلت على المأمون وبخني، ثم قال: اذهبوا به إلى أخيه أبي الحسن، فجيء بي إلى الرضا فتركت بين يديه ساعة واقفاً ثم رفع رأسه إلي، فقال: يا زيد سوءةً لك، ما أنت قائلٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سفكت الدماء وأخفت السبيل، وأخذت المال من غير حله؟ لعلك غرك حديث حمقى أهل الكوفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله زريتها على النار، ويلك! إنما هذا لمن خرج من بطنها الحسن والحسين فقط لا لي ولك، والله ما نالوا ذلك إلا بطاعة الله فإن أردت أن تنال بمعصية الله تعالى ما نالوه بطاعة الله عز وجل إنك إذاً لأكرم على الله عز وجل منهم[2].

(1) المصدر السابق، 187/1.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 188/1.

المأمون وكلب الجنة:

حدث محمد بن عبد الرحمن، قال: حدثني بعض الهاشمين، قال: خرج المأمون يوماً من الرصافة يريد الشماسية فدنونا من ركابه فسلمنا عليه وقبلنا يده، قال: وكان أمامي رجلٌ من الطالبيين يلقب بكلب الجنة، وكان طيباً ظريفاً، فلما دنا من المأمون قبل يده، فقال له المأمون كالمسر إليه: كيف أنت يا كلب الجنة؟ قال: أما الدنانير والدراهم والزينة فلعمرو بن مسعدة وأبي عباد، وأما الطنز والتجمهر فلبني هاشم، فرد المأمون كمه على فيه، وقال: ويلك كف لا تفضحني، قال: لا والله أوتضمن لي شيئاً تعجله لي، قال: العشية يأتيك رسولي، فأتاه عمرو بن مسعدة بثلاثين ألف درهم.

ويخرج بأسلحته لنصرة المأمون:

وحدث عبد الباقي بن قانع، قال:: ركب المأمون يوماً إلى المطبق وبلغ القواد ركوبه فتبعوه، قال: فكان كلب الجنة ممن ركب تلك العشية، قال: فبصر به المأمون وفي يده خشبةٌ من حطب الوقود، وفي اليد الأخرى لحافه، فقال: يا كلب الجنة؟ قال: نعم كلب الجنة بلغه ركوبك فجاء لنصرتك، والله ما وجدت سلاحاً إلا هذه المشقة من حطب البقال، ولا ترساً إلا لحافي هذا، وعياش بن القاسم في بيته ألف ترس وألف درع وألف سيف قائم غير مكترث فوصله بثلاثين ألفاً وجاء عياش يركض، فشتمه المأمون وناله بمكروه[1].

مكافأة قيمة على تصحيح كلمة من حديث شريف:

حدث النضر بن شميل، قال: دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو، وعلي أطمارٌ مترعبلة، فقال: لي: يا نضر أتدخل على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن حر مرو لا يدفع إلا بمثل هذه الأخلاق، قال: لا، ولكنك تتقشف، قال: فتجاذبنا الحديث، فقال

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 243/1.

المأمون: حدثني هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سدادٌ من عوز** -. قلت: صدق قول أمير المؤمنين عن هشيم، حدثني عوف الأعرابي، عن الحسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سدادٌ من عوز** - فكان المأمون متكئًا فاستوى جالساً، وقال: السداد لحنٌ يا نضر؟ قلت: نعم هاهنا، وإنما لحن هشيم وكان لحاناً، فقال: ما الفرق بينهما؟ قلت: السداد: القصد في السبيل، والسداد: البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد، قال: أفتعرف العرب ذلك، قلت: نعم، هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا :: ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً ثم، قال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: أنشدني يا نضر أخلب بيت للعرب، قلت: قول ابن بيضٍ في الحكم بن مروان:

تقول لي والعيون هاجعةٌ :: أقم علينا يوماً فلم أقم
أي الوجوه انتجعت قلت لها : لأي وجه إلا إلى الحكم
متى يقل حاجبا سرادقه :: هذا ابن بيضٍ بالباب، يبتسم
قد كنت أسلمت قبل مقتبلاً : هيهات أدخل أعطني سلمي

قال القاضي: قوله: أسلمت مقتبلاً، معناه أسلفت وأخذت قبل قبيلاً يعني كفيلاً، ومن السلف من كره الرهن والقبيل في السلم، ومنهم من أجازه، وقال: استوثق من حقه، فقال المأمون: لله درك! فكأنما شق لك عن قلبي، أنشدني أنصف بيت قالته العرب، قلت: قول ابن أبي عروبة المديني يا أمير المؤمنين:

إني وإن كان ابن عمي عاتباً :: لمزاحم من خلفه وورائه
ومقيده نصري وإن كان امرأً : مترجرجاً في أرضه وسمائه
وأكون والي سره وأصونه :: حتى يحيز إلى وقت أدائه
وإذا الحوادث أجحفت بسوامه : قرنت صحيحنا إلى جربائه

وإذا أتـى مـن وجهـه بطريفـةٍ :: لـم أطلـع فيمـا وراء خبائـه
وإذا ارتـدى ثوبـاً جميلاً لـم أقل : ياليـت أن علـي حسـن روائـه
::
:

فقال: أحسنت يا نضر، أنشدني الآن أقنع بيتٍ للعرب، فأنشدته قول ابن عبدل:

إني امرؤٌ لم أزل وذاك من الله أديباً أعلم الأدبا

::
:
أقيم بالدار ما اطمأنت بي الد :: ار وإن كنـت نازحـاً طربـا
لا أجتـوي خلـة الصـديق ولا : أتبـع نفسـي شـيئاً إذا ذهبـا
أطلب ما يطلب الكريم من الر :: زق بنفسـي وأجمـل الطلبـا
وأحلـب الثـرة الصـفي ولا : أجهـد أخـلاف غريـبٍ حلبـا[1]
::
:

الرواية الأخرى:

قال النضر بن شميل: دخلت على المأمون، وعلي أطمارٌ أخلاقٌ غسيلٌ، فقال لي: يا نضر! تدخل علي في مثل هذه الأخلاق؟ ثم قال: نحمل منك هذا على التقشف، ثم تجاذبنا الحديث، فقال: المأمون: حدثنا هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم : **إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز** -، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين: أخبرني عوف الأعرابي، عن الحسن، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز** - وكان متكئاً، فجلس واستوى، وقال: يا نضر! السداد في هذا الموضع لحنٌ؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، وإنما لحن هشيم، فقال لي: ما الفرق بين السداد والسداد، قلت: السداد: القصد في الدين والسبيل، والسداد: البلغة في الشيء أسد به الشيء، فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قلت: نعم، هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان، يقول:

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 244/1.

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا :: ليوم كريهةٍ وسداد ثغر
كأني لم اكن فيهم وسيطاً :: ولم تك نسبتي في آل عمرو

فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم تجاذبا الحديث ثم قال: قبح الله اللحن، قلت: ما لحن أمير المؤمنين، وإنما لحن هشيم، وكان هشيم لحانةً، فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، قال: وكيف روايتك الشعر، قلت: قد رويت الكثير منه، قال: فأنشدني في أحسن ما قالت العرب في الحكم، فأنشدته:

إذا كان دوني من بليت بجهله :: أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلي من العلا :: هويت إذاً حلماً وصفحاً عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا :: فإن له حق التقدم والفضل

قال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالت العرب في الحزم، فأنشدته:

على كل حالٍ فاجعل الحزم عدةً :: لما أنت باغيه وعوناً على الدهر
فإن نلت أمراً نلته عن عزيمةٍ :: وإن قصرت عنه الحقوق ففي عذر

فقال: ما أحسن ما قال! فأنشدني ما قالت العرب في إصلاح العدو، حتى يكون صديقاً فأنشدته:

وذي غيلة سالمته فقهرته :: فأوقرته مني بعبء التجمل
ومن لا يدافع سيئات عدوه :: بإحسانه لم يأخذ الطول من عل
ولم أر في الأشياء أسرع مهلكا :: لضغنٍ قديمٍ من وادٍ معجل

قال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالت العرب في السكوت، فأنشدته:

إني ليهجرني الصديق تجنباً :: فأريه أن لهجره أسبابا

وأراه إن عاقبتـــــه أغريتـــــه : فيكـون تركـي للعتـاب عتابـا
وإذا بليـــت بجاهـــلٍ مـــتحكم :: يجد المحال من الأمور صوابا
أوليتـه منـى السـكوت وربمـا : كان السكوت عن الجواب جوابا
::
:
::
:

ثم قال: ما مالك؟ قلت: أريضةٌ بمرو الروذ أتمززها، قال: أفلا نفيدك مالاً؟ قلت: إن رأى أمير المؤمنين ذلك، فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ وكتب، ولا أدري ما كتب، ثم قال: إذا أردت أن تترب الكتاب كيف تأمر، قلت: يا غلام أترب الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: متربٌ، قال: فمن السحاة، قلت: يا غلام أسح الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: كتاب مسحًى، قال: الطين، قلت: يا غلام طن الكتاب، وأطن الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطينٌ ومطان، قال: يا غلام أترب وأسح وطن الكتاب، ثم قال امض إلى الفضل بن سهل بهذا الكتاب، فمضيت فأوصلته، فقال: بم استأهلت أن يأمر لك بخمسين ألف درهم؟ فحدثته الحديث على جهته، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ قلت: ما لحن، وإنما لحن هشيم، فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، فأمر لي بأربعين ألفٍ أخرى من عنده، وانصرفت بكلمة أفادوها بتسعين ألف درهم.

ثمامة وهو سكران ومحاورته للمأمون:

قال الوليد بن عياش بن زفر، خرج ثمامة من منزل محمد بن نوح العمكري مع المغرب وهو سكران، وإذا هو بالمأمون قد ركب في نفر، فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه، وبصر به المأمون فضرب كفل دابته وحاذاه، فوقف ثمامة فقال له المأمون: ثمامة؟ قال: إي والله، قال: سكران؟ قال: لا والله، قال: أفتعرفني؟ قال: أي والله، قال: من أنا؟ قال: لا أدري والله، فضحك المأمون حتى تثنى عليه عن دابته، ثم قال: عليك لعائن الله، قال: تترى يا أمير المؤمنين، قال: فعاد في الضحك، وأمر له بخمسين ألف درهم[1].

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 253/1.

ابن أبي دواد يخرج عيناً على المعتصم:

حدث أبو العباس ابن الفرات قال: لما وجه المأمون بأبي إسحاق المعتصم إلى مصر وعقد له من باب الأنبار إلى أقصى المغرب قال ليحيى بن أكثم: ينبغي أن ترتاد لي رجلاً حصيفاً لبيباً له علم وأمانة وثقة أنفذه مع أبي إسحاق، وأوليه المظالم في أعماله، وأتقدم إليه سرًّا بمكاتبتي سرًّا بأخباره وما تجري عليه أموره، وبما يظهر ويبطن، وما يرى من أمر قواده وخاصته، وكيف تدبيره في الأموال وغيرها، فإني لست أثق بأحدٍ ممن يتولى البريد، وما أحب أن أجشمه بتقليد صاحب البريد عليه فيكون معتمدي عليه وتكون كتبه سرية إليك لتقرئني إياها إذا وردت، فقال: يا أمير المؤمنين عندي رجل من أصحابي أثق بعقله ودينه ورأيه وأمانته وصدقه ونزاهته. فقال: جئني به في يوم كذا وكذا، فصار يحيى بن أكثم بأحمد بن أبي دوادٍ إلى المأمون في اليوم الذي حده له.

فكلمه المأمون فوجده فهماً راحجاً، فقال له: إني أريد إنفاذك مع أخي أبي إسحاق، وأريد أن تكتب بأخباره سراً، وتتفقد أحواله ومجاري أموره وتدبيراته وخبر خاصته وخلواته، وتنفذ كتبك بذلك إلى يحيى بن أكثم مع ثقاتك ومن تأمنه على دمك، فإني أشهر أمرك بتقليد المظالم في عسكره، وأتقدم إليه بمشورتك والأنس بك. فقال له أحمد: أبلغ لك يا أمير المؤمنين في ذلك فوق ما قدرته عندي وبي، وأنتهي إلى ما يرضي أمير المؤمنين ويزلف عنده. فجمع المأمون بين أحمد بن أبي دوادٍ وبين المعتصم وقال له: إنك تشخص في هذا العسكر وفيه أوباش الناس وجند وعجم وأخلاط من الرعية، ولا بد لعسكرك من صاحب مظالم يكون فيه لينظر في أمور الناس، وقد اخترت لك هذا الرجل فضمه إليك وأحسن صحبته وعشرته؛ فأخذه المعتصم معه، فلما بلغوا الأنبار وافت كتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الأنبار، فقال المأمون ليحيى: ترى ما كان من بغداد إلى الأنبار خبر يكتب به صاحبك إليك؟ قال فقال يحيى: لعله يا أمير المؤمنين لم يحدث خبر تحسن المكاتبة به؛ وكتب يحيى إلى أحمد يعنفه ويستبطئه

ويخبره أن أمير المؤمنين قد أنكر تأخر كتابه. فلما ورد الكتاب على أحمد ووقف على ما فيه احتفظ به ولم يجب عنه؛ وشخص المعتصم حتى وافى الرحبة ولم يكتب أحمد بحرف واحدٍ من أخبار المعتصم التي تقدم إليه فيها. وكتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الرحبة وأخبار عسكره، فدعا المأمون يحيى بن أكثم فقال: يا أسخن الله عينك، عجبت أن تختار إلا من هذه سبيله، تختار لي ويحك رجلاً تصفه بكل الصفات فأتقدم إليه بما كنت حاضره، فلا يكتب من بغداد إلى أن يوافى الرحبة إليك كتاباً في معنى ما اعتمد عليه فيه:؟! قال: فكتب يحيى إلى أحمد كتاباً أغلظ له المخاطبة وأسمعه فيه المكروه ويقول له: إنما أشخصناك لما تقدمنا به إليك، وإنا إنما أظهرنا تقليدك المظالم ليتيسر ما أمرت به، فما هذه الغفلة وما هذا الجهل بما يراد منك؟ فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به، وسار المعتصم من الرحبة حتى وافى الرقة، فدعا المأمون بيحيى فقال له: يا سخين العين، هذا مقدار رأيك وعقلك؟ اللهم إلا أن تكون غررتني معتمداً، وأوطأتني العشوة قصداً أولا فتجيئني برجل تعلم موقعه عندك وتطلعني على الوقوف عليه فتصفه وتقرظه حتى أودعته سراً من أسراري وأمراً أقدمه على كل أموري، فمضى من مدينة السلام إلى ديار مصر فلم يكتب بحرفٍ مما أمر بالكتاب به؟! فقال: يا أمير المؤمنين من يعمل بغير ما يؤدي إلى محبتك ويقود إلى إرادتك فأذاقه الله بأسك، وألبسه نكالك، وصب عليه عذابك.

وكتب إلى أحمد كتاباً يشتمل على كل إيعاد وإرهابٍ وتخويف وتحذير، وخاطبه بأوحش مخاطبةٍ وأنكلها، فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب إلى أبي إسحاق المعتصم كتاباً يأمره فيه بالبعثة بأحمد بن أبي دواد مشدودةً يده إلى عنقه، مثقلاً بالحديد، محمولاً على غير وطاء. فورد الكتاب على المعتصم، ودخل أحمد بن أبي داود إليه وهو بالرقة ما جاوزها، فرأى المعتصم كئيباً مغموماً، فقال: أيها الأمير أراك متغيراً وأرى لونك حائلاً، فقال: نعم لكتابٍ ورد علي من أجلك، ونبذ إليه بالكتاب فقرأه أحمد، فقال له المعتصم: تعرف لك ذنباً يوجب ما كتب به أمير المؤمنين؟ قال: ما

اجترمت ذنباً، إلا أن أمير المؤمنين لا يستحل هذا مني إلا بحجةٍ، فما الذي عند الأمير فيما كتب به إليه؟ فقال: أمر أمير المؤمنين لا يخالف لكني أعفيك من الغل والحديد، أحملك إليه على حال لا توهنك ولا تؤلمك وأوجه بك مع غلامٍ من غلماني أتقدم إليه في ترفيهك وأن لا يعسفك، فقال: جزاك الله أيها الأمير أفضل ما جازى منعماً، فإن رأى الأمير أن يأذن لي في المصير إلى منزلي ومعي من يراعيني إلى أن يردني إلى مجلس الأمير فيأمر بأمره فعل، فقال له: امض؛ ووجه معه خادماً من خدمه، فصار أحمد إلى منزله واستخرج الكتب الثلاثة التي كاتبه بها يحيى بن أكثم وهم بالأنبار، والكتاب الذي ورد وهم بالرحبة، والكتاب الذي ورد وهم بالرقة، ورجع إلى المعتصم فأقرأه الكتاب الأول ثم الثاني ثم الثالث وقال له: إنما بعثت لأكتب بأخبارك وأتفقد أحوالك وأكاتب يحيى بذلك ليقرأه على أمير المؤمنين فخالفت ذلك لما رجوته من الحظوة عندك ولما أملته في غدك. فاستشاط المعتصم غضباً وكاد يخرج من ثيابه غيظاً وتكلم في يحيى بكل مكروه وتوعده بكل بلاءٍ وقال: ويلي على البقار البليد السراويل، وقال لأحمد: يا هذا لقد رعيت لنا رعاية لم يتقدمها إحساننا إليك وحفظت علينا ما نرجو أن نتسع، لمكافأتك عليه ومعاذ الله أن أسلمك أو أفرج عنك أو تنالك يد ولي قدرة على منعها منك، أو أوثر خاصة وحميماً عليك ما امتد بي عمر أو تراخى بي أجل، فكن معي فأمرك نافذ في كل ما ينفذ فيه أمري؛ ولم يجب المأمون على كتابه، فلم يزل معه إلى أن ولي الخلافة وإلى أن ولي الواثق وإلى أيام المتوكل، فأوقع به [1].

رؤيا المأمون وما قال أرسطاطاليس:

حدث عبد الله بن طاهر قال: عجبني أمير المؤمنين من رؤيا رآها، فسألته عنها فذكر أنه رأى في منامه كأن رجلاً جلس مجلس الحكماء فقلت له: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس الحكيم، فقلت له: أيها الحكيم ما أحسن الكلام؟ قال: ما يستقيم في الرأي قلت: ثم ماذا؟ قال: ما يستحسنه سامعه، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما لا تخشى عاقبته، قلت: ثم ماذا؟ قال لا ثم. قال

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 282/1.

المأمون: لو كان حياً ما كان يتكلم بأكثر مما تكلم به [1].

المأمون والرجل المتحنط المتكفن:

قال الحسن بن عبد الجبّار المعروف بالعرق: بينما المأمون في بعض مغازيه يسير مفرداً عن أصحابه ومعه عجيف بن عنبسة إذ طلع رجلٌ متحنّطٌ متكفّن، فلما عاينه المأمون وقف، ثم التفت إلى عجيف فقال: ويحك أما ترى صاحب الكفن مقبلاً يريدني، فقال له عجيف، أعيذك بالله يا أمير المؤمنين، قال: فما كذب الرجل أن وقف على المأمون، فقال له المأمون: من أردت يا صاحب الكفن وإلى من قصدت؟ قال: إيّاك أردت، قال: أو عرفتني؟ قال: لو لم أعرفك ما قصدتك، قال: أفلا سلَّمت عليَّ؟ قال: لا أرى السلام عليك، قال: ولم؟ قال: لإفسادك علينا الغزاة، قال عجيف: وأنا ألين مسَّ سيفي لئلاّ يبطئ ضرب عنقه، إذ التفت المأمون فقال: يا عجيف إني جائعٌ ولا رأي لجائع، فخذه إليك حتّى أتغدى وأدعو به، قال: فتناوله عجيفٌ فوضعه بين يديه، فلمّا صار المأمون إلى رحله دعا بالطعام، فلمّا وضع بين يديه أمر برفعه وقال: والله ما أسيغه حتّى أناظر خصمي، يا عجيف عليَّ بصاحب الكفن، قال: فلمَّا جلس بين يديه قال: هيه يا صاحب الكفن ماذا قلت؟ قال: قلت: لا أرى السلام عليك لإفسادك الغزاة علينا قال: بماذا أفسدتها؟ قال: باطلاقك الخمور تباع في عسكرك وقد حرَّمها الله عزّ وجل في كتابه، فابدأ بعسكرك فنظِّفه، ثم اقصد الغزو، لماذا استحللت أن تبيح شيئاً قد حرَّمه الله كهيئة ما أحلّ الله عزّ وجلّ؟ قال: أو عرفت الخمر أنها تباع ظاهراً أو رأيتها؟ قال: لو لم أرها وتصحَّ عندي ما وقفت هذا الموقف، قال: فشيءٌ سوى الخمر أنكرته؟ قال: نعم، إظهارك الجواري في العماريّات، وكشفهنَّ الشعور منهنَّ بين أيدينا كأنهنَّ فلق الأقمار، خرج الرجل منّا يريد أن يهراق دمه في سبيل الله ويعقر جواده قاصداً نحو العدو، فإذا نظر إليهنَّ أفسدن قلبه وركن إلى الدنيا وانصاع إليها، فلم استحللت ذلك؟ قال: ما استحللت ذاك، وسأخبرك بالعذر فيه فإن كان صواباً وإلاّ رجعت. نعم قال:: شيء غير هذا أنكرته،؟ قال: نعم شيء

(1) المصدر السابق، 306/1.

أمرت به: تنهانا عن الأمر بالمعروف، قال: أما الذي يأمر بالمنكر فأّني أنهاه وأمّا الّذي يأمر بالمعروف فإنّي أحثّه على ذلك وأحدوه عليه. ثم قال: أفشيء سوى ذلك؟ قال: لا، قال: يا صاحب الكفن أمّا الخمر فلعمري لقد حرَّمها الله تعالى، ولكن الخمر لا تعرف إلاّ بثلاث جوارح: النَّظر والشمّ والذوق، أفتشربها أنت؟ قال: معاذ الله أن أنكر ما أشرب، قال: أفيمكن في وقتك هذا أن تقفنا على بيعها حتّى نوجّه معك من يشتري منها؟ قال: فمن يظهر لي أو يبيعنيها وعليّ هذا الكفن؟ قال: صدقت. قال: فكأنّك إنما عرفتها بهاتين الجارحتين، يا عجيف عليَّ بقوارير فيها شراب. فانطلق عجيف فأتاه بعشرين قارورة فوضعها بين يديه في أيدي عشرين وصيفاً، ثم قال: يا صاحب الكفن، نفيت من آبائي الرّاشدين المهديّين إن لم تكن الخمر فيها، فإنّك تعلم أن الخمر من ستر الله على عباده، وإنّه لا يجوز لك أن تشهد على قومٍ مستورين إلاّ بمعاينة بيّنة وعلم، ولا يجوز لي أن آخذ إلا بمعاينة بيّنة وشاهدي عدلٍ.

قال: فنظر صاحب الكفن إلى القوارير، فقال له عجيف: أيّها الرجل لو كنت خمّاراً ما عرفت موضع الخمر بعينها من هذه القوارير، قال فقال له: هذه الخمر بعينها من هذه القوارير، فأخذ المأمون قارورة فذاقها ثم قطَّب ثم قال: يا صاحب الكفن انظر هذه الخمر، فتناول الرجل القارورة فذاقها فإذا خلّ ذابح، فقال: قد خرجت هذه عن حدِّ الخمر، فقال المأمون: صدقت إنّ الخلّ مصنوعٌ من الخمر لا يكون خلاًّ حتّى يكون خمراً، ولا والله ما كانت هذه خمراً قطّ، وما هو إلاّ رمّان حامض يعصر لي أصطبغ به من ساعته؛ قد سقطت الجارحتان وبقي الشمُّ، يا عجيف صيِّرها في رصاصيّات وأت بها، قال: ففعل، فعرضت على صاحب الكفن فشمَّها فوقه فوقع مشمه منها على قارورة فيها لبيختبج فقال: هذه فأخذها المأمون فصبها بين يديه وقال: انظر إليها كأنّها طلا قد عقدتها النّار، بل تقطع بالسكين، قد سقطت إحدى الثلاث التي أنكرت يا صاحب الكفن، ثم رفع المأمون رأسه إلى السماء فقال: اللّهمّ إنّي أتقرَّب إليك بنهي هذا ونظرائه عن الأمر بالمعروف. يا صاحب الكفن أدخلك الأمر بالمعروف في أعظم

المنكر، شنَّعت على قومٍ باعوا من هذا الخلِّ ومن هذا النبيختج الّذي شممت فلم تسلّم. استغفر الله من ذنبك هذا العظيم وتب إليه. ما الثاني؟ قال: الجواري قال: صدقت، أخرجتهنّ أبقي عليك وعلى المسلمين، كرهت أن تراهنَّ عيون العدو والجواسيس في المعاريّات والقباب، والسجوف عليهنّ، فيتوهّمون أنّهنّ بنات وأخوات فيجدّون في قتالنا ويحرصون على الغلبة على ما في أيدينا حتّى يجتذبوا خطام واحدٍ من هذه الإبل يستقيدونكم بكل طريق إلى أن يتبيّن لهم أنهنّ إماء، فأمرت برفع الظلال عنهنّ وكشف شعورهنّ فعلم العدوُّ أنهنّ إماء نقي بهنَّ حوافر دوابنا لا قدر لهنّ عندنا؛ هذا تدبير دبَّرت للمسلمين، ويعزُّ عليَّ أن ترى لي حرمة، فدع هذا فليس هو من شأنك فقد صحَّ عندك أنّي في هذا مصيب وأنّك أنكرت باطلاً. أيّ شيء الثالثة؟ قال: ألأمر بالمعروف، قال: نعم أرأيتك لو أنك أصبت فتاةً مع فتى قد اجتمعا في هذا الفجّ على حديث ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أسألهما ما أنتما، قال: كنت تسأل الرجل فيقول: امرأتي، وتسأل المرأة فتقول: زوجي، ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أحول بينهما فأحبسهما، قال: حتّى يكون ماذا؟ قال: حتّى أسأل عنهما، قال: ومن تسأل عنهما؟ قال: كنت أسألهما من أين أنتما، قال: سألت الرجل من أين أنت فقال لك: أنا من أسبيجاب، وسألت المرأة: من أين أنت؟ فقالت: من أسبيجاب، ابن عمِّي، تزوّجنا وجئنا.

كنت حابساً الرجل والمرأة بسؤالك وتوهّمك الكاذب إلى أن يرجع الرسول من أسبيجاب فمات الرسول أو ماتا إلى أن يعود رسولك، قال: كنت أسأل في عسكرك هاهنا، قال: فلعلّك لا تصادف في عسكري هذا من أهل أسبيجاب إلاّ رجلاً أو رجلين فيقولان لك: لا نعرفهما على هذا النسب. يا صاحب الكفن ما أحسبك إلاّ أحد ثلاثة رجالٍ إمّا رجل مديون، وإمّا مظلوم، وإمّا رجل تأوّلت في حديث أبي سعيد الخدري في خطبة النبيّ صلى الله عليه وعلى آله قال: وروي الحديث عن هشيم وغيره، ونحن نسمع الخطبة إلى مغيربان الشمس إلى أن بلغ إلى قوله: " إن أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر " فجعلتني جائراً، وأنت الجائر، وجعلت نفسك تقوم مقام الآمر بالمعروف، وقد ركبت من المنكر ما هو

أعظم عليك، لا والله لا ضربتك سوطاً ولا زدت على تخرق كفنك، ونفيت من آبائي الراشدين المهديين لئن قام أحد مقامك هذا لا يقوم بالحجّة فيه إن نقصته من ألف سوطٍ ولآمرنَّ بصلبه في الموضع الذي يقوم فيه، قال: فنظرت إلى عجيف وهو يخرق كفن الرجل ويلقي عليه ثياب بياض [1].

أبو الينبغي والمأمون:

كان أبو الينبغي يحمَّق، وكان أحد الدواهي والمجّان، وكان يتكسَّب بالحمق، فلما قتل محمد بن زبيدة وصار الأمر إلى المأمون ذكر له أبو الينبغي فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه وسلَّم أمره بالجلوس فجلس، فقال له بعض الجلساء: قم فأنشد أمير المؤمنين، فاقل: يا رقيع، أمير المؤمنين يقول لي: اجلس وأنت تقول لي قم. فقال المأمون: بل اجلس وأنشد، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنشأ يقول:

كنتم أنتم ثلاثة : كلّكم نسل الملوك
ذهب الموت بواحد : ما أرى ذاك يسوك

فقال المأمون: اغرب قبحك الله، وأمر به فأخرج، ثم قال: لا والله ما ينبغي أن نخيِّبه فقد قال على جنونه شبيهاً بالحق، ولا والله أعطوه عشرة آلاف فقبضها وانصرف. وهو يقول: شبيه بالحق، لا والله إلا الحق كلّه[2].

لا رأي لنا في الشركة!:

ولما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي قال لأحمد بن أبي خالد الكاتب: يا أحمد! ما تقول في هذا الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن تقتله فقد وجدت مثلك قتل مثله! وإن تعف عنه لم تجد مثلك عفا عن مثله! فقال المأمون: لا رأي لنا في الشركة! وأمر بإطلاقه؛ وعفا عنه [3].

أحب إلي من جائزته:

كتب محمد بن عمر الواقدي إلى المأمون رحمه الله يشكو غلبة الذين

(1) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 1/ 411.
(2) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، 464/1.
(3) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، 24/1.

وضيق اليد فوقع على كتابه: فيك خلتان الحياء والسخاء؛ فأما الحياء فهو الذي منعك أن ترفع إلينا خبرك؛ وأما السخاء فهو الذي أنفذ ما بيدك؛ وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير: **يا زبير! إن باب الرزق بإزاء العرش ينزل الله على عباده على قدر نفقاتهم فمن كبر كبر له، ومن قلل قلل عليه** -، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم فاتسع في ذات يدك! فقال الواقدي: والله لمذاكرته إياي الحديث - وقد أنسيته أحب إلي من جائزته[1].

رد المظالم:

عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه - وقد هم بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم. فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي بحاجتك. فقالت:

يا خير منتصف يهدى له الرشد ⁝ ويا إماماً به قد أشرق البلد

تشكو إليك عميد القوم أرملةعدى عليها فلم يترك لها سبد

وابتز مني ضياعي بعد منعتها ⁝ ظلما وفرق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد ⁝ عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفي ⁝ وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ⁝ ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين -

(1) المصدر السابق، 31/1.

وأومأت إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة [1].

ودخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة، فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد؟ - وذكر قوله فلم يعجب المأمون - فقال: لقد تيست فيها وتيس مالك. قال الحارث بن مسكين: فالسامع يا أمير المؤمنين، من التيسين أتيس. فتغير وجه المأمون. وقام الحارث بن مسكين فخرج، وتندم على ما كان من قوله. فلم يستقر منزله حتى أتاه رسول المأمون؛ فأيقن بالشر، ولبس ثياب أكفانه، ثم أقبل حتى دخل عليه فقربه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله تبارك وتعالى قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني، فقال لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون: {ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ} [طه: ٤٤]. فقال: يا أمير المؤمنين، أبوء بالذنب وأستغفر الرب. قال: عفا الله عنك، انصرف إذا شئت[2].

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده، فقال له: إن قبلة اليد من المسلم ذلة، ومن الذمي خديعة، ولا حاجة بك أن تذل، ولا بنا أن نخدع[3].

فعليهم فابك وإياهم فاشكر:

قال برون الكبير: وجّه إليّ المأمون وقد مضى من الليل الثلث فقال لي: يا برون قد أكثر علينا أصحاب الأخبار في أن شيخاً يرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندبهم وينشد أبياتاً من الشعر فاركب أنت وعليّ بن

(1) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، 4/1.
(2) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، 17/1.
(3) المصدر السابق، 132/1.

محمد ودينار ابن عبد الله حتى تردوا هذه الخرابات فتصيروا من وراء جدرانها فإذا رأيتم الشيخ قد ورد وبكى وأنشد فأتوني به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زِلّيّة رومية وكرسيّ جديد، وإذا شيخ وسيم جميل له صلعة وهامة فجلس يبكي ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفراً ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه ... قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فرُبّ عظيمةٍ ... كشفت ونعمى قد وصلت بها نعمى
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفرٍ ... شماتته أبشر لتأتيهم العقبى
لئن زال غصن الملك عن آل برمك ... فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى
وما الدهر إلا دولة بعد دولةٍ ... تبدل ذا ملكٍ وتعقب ذا بلوى
على أنها ليست تدوم لأهلها ... ولو أنها دامت لكنتم بها أولى
بني برمك كنتم نجوماً مضيئةً ... بها يهتدي في ظلمة الليل من أسرى
لأبكم أبكي أللفضل ذي الندى ... أم الشيخ يحيى أم لمحبوسه موسى
أم الملك المصلوب من بعد عزةٍ ... أم ابكي بكاء المعولات أم الثكلى
لكلكم أبكي بعينٍ غزيرةٍ ... وقلبٍ قريحٍ لا يموت ولا يحيا

قال: فتراءينا له ثم قبضنا عليه، فجزع وفزع وقال: من القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين وهذا فلان وفلان. قال: وما الذي تريدون؟ قال برون: فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين من أخذه إلى مجلسه. قال: ذرني أوص فإني لا آمنه، ثم تقدم إلى بعض العلافين في فرضة الفيل فأخذ بياضاً وأوصى فيه وصية خفيفة ودفعها إلى الغلام وسرنا به، فلما مثل بين يدي المأمون زبره وقال: من أنت وبماذا استوجب البرامكة ما تفعله في دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أيادٍ خضرة أفتأذن لي

أن أحدّثك؟ فقال: سديداً. قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دمشق كنت بها من أولاد الملوك فزالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبتني الديون واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس آبائي أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يرهن حتى دخلت بغداد ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد ودعوت بثوبيات لي قد كنت أعددتها لأستميح بها الناس وتركتهم جياعاً وركبت شوارع بغداد فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالستهم بأحسن زي وزينة وبزة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدّم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، فأنا لكذلك إذا أنا بخادم قد أقبل وقال للخادمين: ازعجا القوم، فازعج القوم وأنا معهم فأدخلونا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، فإذا بيحيى جالساً على دكة له وسط بستان، فسلّمنا وهو يعدنا مائة رجل وواحداً، وبين يدي يحيى عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد حين عذّر خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم متنطقون في وسط كل خادم منطقة من ألف مثقال مع كل خادم مجمرة من ذهب ورجل من ذهب في كل مجمرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد ضم إليه مثله من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للزبرقيّ القاضي: تكلم فقد زوّجت ابنتي عائشة من ابن عمي هذا من بيت نار النوُّبهار.

فخطب القاضي وشهد القاضي والنفر وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمّي ونظرت وإذا يحيى في الدكّة ما بين المشايخ ويحيى وولده والغلام ونحن مائة رجل واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادماً مع كل خادم صينية فضة عليها ألف دينار شامية، فوضع بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبّون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على الصينية، فغمز لي الخادم، فجسرت عليها وجعلتها في

كمّي وأخذت الصينية وقمت وأنا أمر طول الصحن والتفتّ ورائي هل يتبعني أحد، فإني لكذلك أطاول الالتفات ويحيى يلحظني فقال للخادم: ائتني بالرجل، فرُددت إليه، فأمر، فسُلبتُ الدنانير والصينية، ثم أمرني بالجلوس فجلست، فقال: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي. فقال: علي بموسى، فأُتي به، فقال: يا بني هذا رجل غريب فخذه إليك اخلطه بنفسك ونعمتك. فقبض عليّ موسى وأخذني إلى بعض دوره فقصف عليّ يومي وليلتي، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: إن الوزير أمرني بالقصف على هذا الفتى وقد علمت تشاغلي في دار أمير المؤمنين فاقبض عليه وقاصفه، فلما كان من غد تسلمني أحمد، ثم لم أزل وأيدي القوم تتداولني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني في الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان في اليوم العاشر دُفعت في يدي الفضل فقصف عليّ، فلما كان في الحادي عشر جاءني خادم مع عشرة من الخدم فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وقد تمزقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرُفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفع السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئت، ورفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والندّ ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقلبون في الحرير والديباج وأنا قد حمل إليّ ألف ألف درهم مبدّرة وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين وتلك الصينية مع الدنانير والبنادق، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم من بيت نار النوبهار أو رجل غريب اصطنعوني، فلما جاء القوم البلية ونزلت بهم من الرشيد النازلة قصدني عمرو بن مسعدة وألزمني من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم. فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال له: يا عمرو أتعرف الرجل؟ قال: نعم هو من بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: ردّ عليه كل ما استأديته إياه في سنيه وأوغر ضيعتيه تكونان له ولعقبه من بعده، فعلا نحيب الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكاؤه

قال له المأمون: فمّ بكاؤك وقد أحسنا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا أيضاً من صنائع البرامكة، أرأيتك يا أمير المؤمنين لو لم آت خرابات القوم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه؟ قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عينه واشتد حزنه على القوم وقال: صدقت لعمري هذه أيضاً من صنائعهم، فعليهم فابك وإياهم فاشكر! [1].

قبول السعاية شرًّا:

قيل: وكتب صاحب بريد همذان إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقّع المأمون: إنا نرى قبول السعاية شراً كمن قبله وأجازه، فأنف الساعي عنك فلو كان في سعايته صادقاً لقد كان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه.

قال: وقال المأمون لولده: يا بني نزّهوا أقداركم وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعايتهم فكل جانٍ يده في فيه وليس يشي إليكم إلا أحد الرجلين ثقة وظنين، أما الثقة فقد قيل: إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ويكذّب ظنه ويردّ باطله، وما سعى رجل برجل إليّ قط إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً، فلا تعطوا الوشاة أمانيهم فيمن يشون بهم، فقد قال بعض الملوك لرجل سعى بآخر: لو كنت أنت أنا ما كنت صانعاً به؟ قال: كنت أقتله. فقال: أما إذ لم تكن أنت أنا فإني غير قاتله ومع ذلك فلا تدعوا الفحص عما يلقى إليكم مما تحذرون رجوع ضرره عليكم [2].

ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق!:

قال ثمامة صاحب الكلام: كان المأمون قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً في الطعن عليه، قال: ففثأه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال: يا أمير

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،54/1، 55.
(2) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،56/1.

المؤمنين العامة لا تحتمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرةٌ ونبوةٌ لا تستقال ولا يُدرى ما تكون عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وآمن في العاقبة وأجرى في التدبير، فركن إلى قوله، فلما دخلت عليه قال: يا ثمامة قد علمت ما كنا دبّرناه في أمر معاوية وقد عارضنا رأيٌ هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة، ثم أخبرني أن يحيى بن أكثم حذّره وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي، فقلت: يا أمير المؤمنين والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى، والله لو بعثت إليها إنساناً على عاتقه سوادٌ ومعه عصاً لساق إليك منها عشرة آلاف! والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل وعز أن سوّاها بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً، فقال تبارك وتعالى:{ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ} [الفرقان: ٤٤]، والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلَمة، وقد تألبوا عليه واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت: يا هذا أرى عينيك أحوج الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء! فما بالك يا هذا لا تستعمله؟ قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر، فأقبل عليّ الجماعة فقالت: صدق والله أنت جاهل، وهمّوا بي، فقلت: والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر! فتخلصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جل ذكره من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر، قلت: أجل[1].

لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك:

وحدّث رجل عن جعفر العطار قال: بينما يحيى بن أكثم يماشي

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،68/1.

المأمون في بستان موسى والشمس عن يمينه والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدثان إذ رأى المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده قال يحيى: إنك جئت وعن يسارك الشمس وقد أخذت منك فكن أنت الآن في منصرفك حيث كنت وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيك بنفسي من هول المطلع لفعلت فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة؟ فقال: والله لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك وتأخذ من الظل كما أخذت منه! فصار المأمون في موضعه وصار يحيى في موضع المأمون وتماشيا وأخذ بيده فوضعها على عاتقه حتى صار إلى المجلس[1].

محاسن الرؤيا:

حدثنا أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد قال: كان المأمون يبطّل الرؤيا ويقول: ليست بشيء ولو كانت على الحقيقة كنا نراها ولا يسقط منها شيء، فلما رأينا إنما يصحّ منها الحرف والحرفان من الكثير علمنا أنها باطل وأن أكثرها لا يصح، وكان بعث بابنه العباس إلى بلاد الروم فأبطأ عليه خبره فصلّى ذات يوم الصبح وخفق وانتبه ودعا بدابته وركب وقال: أحدثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخاً أبيض الرأس واللحية عليه فروة وكساؤه في عنقه ومعه عصاً وفي يده كتاب فدنا مني وقد ركبت فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسلامة، وناولني كتابه. فقال المعتصم: أرجو أن يخفق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسره بسلامته. قال: ثم نهض فوالله ما هو إلا أن خرج فسار قليلاً إلا وبصر بشيخ قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيته في منامي وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فنحّاه خدمه وصاحوا به. فقال: دعوه. فجاء الشيخ، فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه. قال: فبهتنا وطال منه تعجبنا. فقلت: يا أمير المؤمنين أتبطل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا[2].

فما نطق بحرف:

(1) المصدر السابق،88/1.
(2) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،144/1.

قيل: ودخل أبو العتاهية على المأمون حين قدم العراق فأنشده شعراً يمدحه به، فأمر له بمال جزيل وأقبل عليه يحدثه إذ ذكر أبو العتاهية القدرية، فقال: يا أمير المؤمنين ما في الأرض فئة أجهل ولا أضعف حجة من هذه العصابة. فقال المأمون: أنت رجل شاعر وأنت بصناعتك أعلم فلا تتخطها إلى غيرها فلست تعرف الكلام. فقال: إن جمع أمير المؤمنين بيني وبين رجل منهم وقف على ما عندي من الكلام. قال ثمامة: فوجّه إليّ رسولاً، فلما دخلت قال: يا ثمامة زعم هذا أنه لا حجة لك ولا لأصحابك! قلت: فليسل عما بدا له.

فقال المأمون: سله يا إسماعيل. قال: أقطعه يا أمير المؤمنين بحرف واحد؟

قال: شأنك. فأخرج أبو العتاهية يده من كمه وحركها وقال: يا ثمامة من حرّك يدي هذه؟ قلت: حركها من أمه زانية. قال: فضحك المأمون حتى فحص برجله وتمرّغ على فراشه وقال: زعمت أنك تقطعه بكلمة واحدة! فقال أبو العتاهية: شتمني يا أمير المؤمنين. قلت: ناقضت يا عاضّ بظر أمه! قال: فعاد المأمون في الضحك حتى خفت عليه من ضحكه وشدة ما ذهب له، ثم قلت: يا جاهل تحرك يدك وتقول من حركها! فإن كنت أنت المحرك لها فهو قولي وإن تكن الأخرى فما شتمتك! فقال المأمون: يا إسماعيل عندك زيادة في الكلام؟ فإن الجواب قد مضى فيما سألت. فما نطق بحرف حتى انصرف[1].

الحق أنطقها والباطل أخرسه:

عن قحطبة بن حميد بن قحطبة قال: قعد المأمون للمظالم ذات يوم فلم يزل قاعداً إلى أن قلنا قد فاتته الصلاة، فكان آخر من دعي امرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال: وعليكِ السلام، تكلمي يا أمة الله. فقالت:

يا خير منتصفٍ يُهدى به الرشدِ :: ويا إماماً به قد آشرق البلد
أشكو إليك عقَيد الملك أرملةً : عدا عليها فلا تقوى به الأسد
فابتز مني ضياعي واستبد بها :: ففارق العيش مني الأهل والولد

(1) المصدر السابق،199/1.

فقال المأمون:

في دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... وقد تقطّع مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يُقض الجلوس لنا ... ننصفك فيه وإلا المجلس الأحد

قال: فانصرفت فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من دعا به المرأة، فسلمت فرد المأمون عليها السلام وقال: أين الخصم، رحمك الله؟ قالت: هو واقف على رأسك وقد حيل بيني وبينه. وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأقعده معها. قال: ففعل ذلك. فجعلت تعلو على العباس بصوتها وتقول: ظلمتني واعتديت عليّ وأخذت ضيعتي. فقال لها أحمد: ما هذا الصياح؟ إنك بين يدي أمير المؤمنين تناظرين الأمير! فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. فلم يزالا يتناظران حتى حكم المأمون لها برد ضيعتها ثم قال: يا أحمد اردد عليها ما جباه العباس من ضيعتها وادفع إليها عشرة آلاف درهم ترمّ بها ما أراه من سوء حالها واكتب إلى والينا وقاضينا بإرفاقها والنظر في أمرها وأوغر لها خراج ضيعتها بالشيء الطفيف وليكن ذلك في يومنا هذا. فما برحت حتى قضيت حوائجها وخرجت[1].

أفأخاطب بالخلافة سواك؟

وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران: بسم الله الرحمن الرحيم. مظلمة من أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. فقال: أمظلمة مني! قال: أفأخاطب بالخلافة سواك؟ قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشترى مني جوهراً بثلاثين

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،212/1.

ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفر عليّ المال. قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة مني! قال: نعم إذا كانت الوكالة قد صحت له منك. قال: إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات: أما أول ذلك فلعل سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوفّره عليك، أو لعله قد وفّره وادعيت باطلاً، أو اشتراه لنفسه. أما في العاجل فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك ظلامة.

فقال الرجلك إن الله جل وعز قد أهّلك لموضع رفيع واختصك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالانصاف فإنك مناسب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، واسترعاك على خلقه فهلا تحملني على كتاب الله جل وعز وسنّة ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصية لقضاتكم إذ يقول: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

قال المأمون: فإنك والله قد عدمت البينة فما يجب لك إلا حلفةٌ ولئن حلفتها لأنا صادق إذ كنت لا أعرف لك حقًّا يلزمني.

قال: فإذاً أدعوك إلى الحاكم الذي نصبته لرعيتك. قال: نعم، يا غلام عليّ بيحيى بن أكثم. فإذا هو قد مثل بين يديه. فقال: يا يحيى! قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية! قال: نعم. قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامة أولاً ليصبح المجلس للقضاء. قال: افعل.

ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامة ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون. فنادى المنادي فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبيها في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس. فقال له: اجلس. فطرح المصلى ليقعد عليه. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس. فطرح له مصلى آخر

فجلس عليه. وقال له يحيى: ما تقول؟ فقال: لي على هذا ثلاثون ألف دينار. قال: ومن هذا؟ قال: أمير المؤمنين المأمون بالله. قال له يحيى: يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول؟ قال: سله ما وجهها. فأعاد خبر الوكيل. فقال المأمون: ما أعرف له حقًّا. فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت، ألك بينة؟ قال: لا. قال: فما تريد؟ قال: ما يوجبه الحكم لمن عدم البينة. قال المأمون: ويحك قد لججت في اليمين! قال: يا أمير المؤمنين أتحلف؟ قال: إي والله ولا أوطئ نفسي العشوة في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً. فقال: قل والله. فاستحلفه غموساً.

ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك وليس الآن من حقك أن أتصدر عليك. وقبض على الرجل لئلا يخرج. فقال المأمون: ارفقوا به. ثم قال: يا غلام أحضرني ما ادّعى من المال. فلما أحضر قال: خذه إليك والله ما كنت أحلف على فجرة ثم اسمح لك فأفسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعتُ إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أن تناولتك من وجه القدرة وأني منعتك واجبك بالاستطالة عليك وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين. فقال: يا أمير المؤمنين أفأُحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه؟ قال: إي والله ولو بالتُّغزغز وأسبيجاب. فأخرج الرجل مع المال وبذرق به إلى أن بلغ مأمنه [1].

أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟

وحكى جعفر ابن أخت أبي العباس قال: دخلت على المأمون ويداه معلقتان من شيء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح: يا غلام. وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه. فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً فإذا بعضهم يلعب بالشطرنج وبعضهم بالكعاب وبعضهم يهارش الديوك. فقلت: يا بني الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ فقال واحد: حتى أقيس هذا الكعب. وقال الآخر: قد بقيت على ضربه. وقال آخر: امض فإني أتبعك. فما علمت ما أخاطبهم به من الحنق عليهم، فإذا المأمون

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،213/1.

قد صوّت بي وأنا أقذف أمهاتهم. فأتيته وهو يضحك. فقال: ارفق بهم فإنهم بشر مثلك. فقلت: تقول هذا وأنت معلّق اليد؟ فقال: وهذا معاشرتك خدمك؟ فقلت: والله لو فعل بي هذا ولدي من دون خدمي لقتلته! قال: هذه أخلاق السوقة وأخلاقنا أخلاق الملوك. فقلت: لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء عليهم السلام[1].

إني لأعلم ما في كتابك!:

وقال ثمامة بن أشرس: والله إني لفي مجلس المأمون وعنده عمرو بن مسعدة وأبو عباد والعباسي ومحمد بن أبي محمد اليزيدي إذ دخل عليّ بن صالح فقال: محمد بن الفضل بن سليمان الطوسي بالباب. قال: يدخل. فدخل وسلم وفي يده كتاب فأشار به إلى المأمون. فقال المأمون: اذكر ما فيه. فقال: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك سر من أسرار الخليفة لا يحتمل إذاعته! قال: وإن كان ذلك فاذكره. قال: يا أمير المؤمنين لست فاعلاً! قال: يا هذا ما بحضرتنا من نكتمه أسرارنا فأبد ما عندك. فأعاد محمد بن الفضل مثل قوله الأول والثاني. فقال المأمون إني لأعلم ما في كتابك! قال: هذه كهانة! قال: فنزل المأمون عن فرشه ورفع ستراً كان في ظهر مجلسه ودخل وأشار إلينا وقال: لا تبرحوا. فجاء علي بن صالح فأخذ بيد الطوسي وقال: قم فأنت أشأم من البسوس. فأقعده خلف حائط بقرب المجلس لكي إن خرج لا يراه وإن دعاه أحضره. قال: فجعل كل واحد منا يرجف بجنسٍ من المكروه وكلنا خائفون عليه، فواحد يقول: يأخذ الساعة أمواله وينفيه. وآخر يقول: يضرب عنقه. قال: فأبطأ علينا المأمون ثم خرج ووجهه مسفر ضاحكة سنّه، فقال: سمعتم ما كلمني به هذا الخائن، إنه والله لما بلغ مني كلامه لم أجد بدًّا ولا دواء إلا ملاعبة الجواري والنساء ليزول عني ما قد تداخلني، وقد أسمعني ما أكره بضع عشرة مرة واحتملته[2].

أو اذبحني فلا أُبتلى بفراقك:

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،213/1.
(2) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،222/1.

قيل: وكان المأمون وجد على قائد من قواده فاستصفى ضياعه وداره وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض ويطلب من فضل الله جل وعز ويخلّف بنيته. فبكت الابنة وقبضت على أبيها وقالت: اقنع بما آتاك الله واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر والزم الوطن وارحم وحدتي وضعفي وقلة حيلتي أو اذبحني فلا أُبتلى بفراقك. فبكى الشيخ وقال:

تقول ابنتي لما أردت وداعها ... وقد حضرتني نيةٌ ورحيل
لعل المنايا في رحالك تنبري ... لنفسك ختلاً أو تغولك غول
فتتركني أدعى اليتيمة بعدما ... تبين وعزّي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربك بالذي ... تسير له راعٍ عليك كفيل
أليس ضعيف القوم يأتيه رزقه ... يُساق إليه والبلاد محول
ويحرم جمع المال من قد يرومه ... يكدّ عليه رحله وحلول
فلو كنت في طودٍ على رأس هضبةٍ ... لها نجفٌ فيه الوعول تقيل
مضعّدة لا يستطاع ارتقاؤها ... ولا لنزولٍ يستطاع سبيل
إذاً لأتاك الرزق يحدوه سائقٌ ... حثيثٌ ويهديه إليك دليل

قال: فنمى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ فاستنشده شعره فأنشده، فرقّ له وأمر بردّ جميع ما أخذ منه وأعاده إلى مرتبته وزاده من عنايته[1].

من تلامذة كسرى في الحمق:

وحكي عن أبي عباد الكاتب أنه قال: كنت يوماً عند المأمون فدعا بالغداء وكان يستنزل من قام من مجلسه عند ذكر الطعام ويقول: هذا من أخلاق اللئام، فقدّموا إليه بطيخاً على أطباق جدد فجعل يقوّر بيده ويذوق البطيخة فإذا حمد حلاوتها قال: ادفع هذه بسكينتها إلى فلان. فقال لي وقد دفع إلي بطيخة كانت أحلى من الشهد المذاب: يا أبا عباد بم تستدل على حمق الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين أما عند الله فعلامات كثيرة وأما عندي فإذا رأيت الرجل يحب الشاهلوج ويبغض البطيخ علمت أنه أحمق.

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،239/1.

قال: وهل تعرف صاحب هذه الصفة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين الرستمي أحد من هذه صفته. قال: فدخل الرستمي على أمير المؤمنين، فقال له المأمون: ما تقول في البطيخ الرمشيّ؟ قال: يا أمير المؤمنين يفسد المعدة ويلطخها ويُرقّها، يرخي العصب ويرفع البخار إلى الرأس. قال: لم أسألك عن فعله إنما سألتك أشهي هو؟ قال: لا. قال: فما تقول في الشاهلوج؟ قال: سماه كسرى سيد أجناسه. قال: فالتفت المأمون إليّ وقال: الرجل الذي كنا في حديثه أمس من تلامذة كسرى في الحمق.

عزله عنهم:

وحكي أن المأمون ولي عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه فأرسل إليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن إليه وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابًا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذًا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد وعمر منهم المساجد الداثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير وقوله: عمر منهم المساجد الداثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئا من الدنيا ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره [1].

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،251/1.

صداق ابنتي مائة ضيعة خربة:

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرًا يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلى في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها لكن إن دام وإلينا سلمة الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال الرعية [1].

ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب:

وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يوما فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادي ثانيًا وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام فنكس المأمون رأسه طويلا، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ثم نظر إلى فقال: يا عبد الله، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع إن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا[2].

إنَّ الَّذي شرِّفت من أجله ... يزعم هذا أنَّه كاذب

استأذن على المأمون بعض شيوخ الفقهاء، فأذن له، فلما دخل عليه رأى بين يديه رجلاً يهوديًّاً كاتباً، كانت له منزلة وقربه لقيامه بما يصرفه فيه ويتولاه من خدمته، فلما رآه الفقيه قال - وقد كان المأمون أومأ إليه

(1) المستطرف 242/1، 243.
(2) المصدر السابق 260/1.

بالجلوس: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إنشاد بيت حضر قبل أن أجلس قال: نعم، فأنشده:

إنَّ الَّـذي شـرِّفت مـن أجلـه ⁝ يـزعم هـذا أنَّـه كـاذب

وأشار إلى اليهوديّ، فخجل المأمون ووجم، ثم أمر حاجبه بإخراج اليهودي مسحوباً على وجهه، وأنفذ عهداً باطّراحه وإبعاده، وألاّ يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من أعماله[1].

هدبة بن خالد على مائدة المأمون:

عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال: حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض، فنظر إلّي المأمون فقال: أما شبعت يا شيخ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر** - فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار فناولني إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك [2].

المأمون يشدد في الغناء:

وكان المأمون قد حرم الغناء وشدد فيه فلقي علي بن هشام إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الجسر، فقال إسحاق لعلي بكلام يخفيه: قد زارتني اليوم فلانة، وهي أطيب الناس غناءً، فبحياتي إلا كنت اليوم عندي. فوعده بالحضور وتفرقا، وإذا بطفيلي يسمع كلامهما فمضى من وقته، فلبس ثياباً حسنة؛ واستعار من بعض إخوانه بغلة فارهة بسرجها ولجامها، فركبها وأتى باب علي بن هشام بعد أن نزل من الركوب بساعة، فقال للحاجب: عرف الأمير أن رسول صاحبه إسحاق بن إبراهيم بالباب؛ فدخل الحاجب وخرج مسرعاً وقال: ادخل جعلت فداك، فدخل على علي فرحب به، فقال

(1) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 78/1.
(2) طيب المذاق من ثمرات الأوراق، ص 14.

له: يا سيدي يقول لك أخوك: تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عني؟ فقال له: الساعة وحياتك نزلت من الركوب، والساعة أغير ثيابي وأوافيه، فاستوى على دابته ووافى منزل إسحاق؛ فقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول علي بن هشام؛ فدخل الحاجب وخرج فقال: ادخل! جعلني الله فداك؛ فدخل فسلم وقال: أخوك يقرئك السلام ويقول لك: الساعة نزلت من الركوب، وقد غيرت ثيابي وتأهبت للمسير فما ترى؟ فقال: قل له يا سيدي قتلتنا جوعاً، فبحياتي إلا ما حضرت. فرجع إلى باب علي وقال للحاجب: تعرفه أن الأمير أمرني ألا أبرح أو يجيء معي.

فغير علي بن هشام ثيابه، وركب دابته، وتبعه الطفيلي حتى نزل بباب إسحاق بن إبراهيم، ونزل الطفيلي معه، ودخلا جميعاً فسلما وجلسا، وجيء بالطعام فأكلوا، وإسحاق لا يشك أنه أخص الناس بعلي، وعلي لا يشك أنه أخص الناس بإسحاق، ثم غسلوا أيديهم وقدموا الشراب، وخرجت جارية من أحسن الناس وجهاً وزيًّا، فجلست وأتيت بعود، فغنت أحسن غناء، ودارت الأقداح فلم يزالوا على ذلك إلى بعد العصر، وأخذ الطفيلي البول حتى كاد يأتي على ثيابه فصبر جهده؛ فلما عيل صبره قام فدخل الخلاء، فقال علي لإسحاق: يا سيدي، ما أخف روح هذا الفتى وأحلى نوادره! فمن أي وقع لك؟ قال أوليس هو صاحبك؟! قال: لا وحياتك ولا رأيته قبل يومي هذا، قال: فإنه جاءني برسالتك وقص قصته؛ وقص إسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه؛ وقال: طفيلي يستجرىء علي وعلى النظر إلى حرمي والدخول إلى داري! يا غلمان: السياط والعقابين، المقارع والجلادين. فقامت في الدار جلبة، وأحضروا جميع ذلك، والطفيلي يسمع وهو في الخلاء، ثم إنه خرج رافعاً ثيابه غير مكترث بما فعلوه، وهو مقبل على تكة لباسه يشدها، ويتمشى في صحن الدار وهو يقول: جعلت فداك! إيش بي من جهدك! فهل عرفتني مع هذا كله؟ فقال إسحاق: ومن أنت؟ فقال: أنا صاحب خبر أمير المؤمنين، وعينه على سره، والله لولا تحرمي بطعامك وممالحتي لتركتكما في عمىً من أمري، حتى كنت تعرف عاقبة حالك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد أمرك! فقام إليه إسحاق وعلي يسكتانه وقالا له: يا هذا، إننا لم نعرفك ولم

نعلم حالك، ولك الفضل علينا، وأنت المحسن المجمل إلينا؛ ولكن تمم إحسانك بسترك ما نحن عليه.

ثم قال إسحاق: يا غلام، الخلع! فأتي بثياب فاخرة فصبت عليه، وتقدم بإسراج دابة هملاج بسرج مخفف ولجام حسن؛ ولم يزالا به حتى طابت نفسه، ووعدهما كتمان أمرهما، وحضر وقت الانصراف فودعهما وانصرف، فأتبعه إسحاق بخادمه معه صرة فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركب الدابة ومضى.

فلما كان من الغد دخل علي بن هشام على المأمون. فقال: يا علي؛ كيف كان خبرك أمس؟ على حسب ما يجري السؤال عنه فتغير لونه، ولم يشك في أن الحديث رفع إليه؛ فأكب على البساط يقبله وقال: يا أمير المؤمنين، العفو، يا أمير المؤمنين، الأمان. قال: لك الأمان. فأخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فضحك المأمون حتى كاد يغشى عليه، وقال: ما في الدنيا أملح من هذا. ووجه خلف إسحاق، فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر علي بن هشام والمأمون يضحك. ثم قال: يا إسحاق؛ بحياتي أطلب الرجل وجئني به، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فكان أحد ندماء المأمون[1].

من كلامه:

- وقال المأمون لرسولٍ بعث له:

بعثتك مرتاداً، ففزت بنظرة ... وأغفلتني، حتّى أسأت بك الظّنّا
وناجيت من أهدى وكنت مقرّباً ... فيا ليت شعري، عن دنوّك ما أغنى؟
وردّدت طرفاً في محاسن وجهها ... ومتّعت باستمتاع نغمتها الأذنا

(1) جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص 9.

أرى أثراً منها بعينيك لم يكن، لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا.

فيا ليتني كنت الرّسول فأشتفي :: وكنت الذي يعصي وكنت الذي أدنى[1]

- " لأَن أُخطِئَ باذِلاً أَحبُّ إِليَّ من أن أُصيبَ مانعاً "، والشاعر يقول:

لا يَذْهب العُرْفُ بينَ اللهِ والنّاسِ [2]

- قال يحيى بن أكثم سمعت المأمون يقول لإبراهيم: لا شيء أطيب من النظر في عقول الرجال. والثالث تأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تعسر عليه لحاقه [3].

- قال المأمون: قد يسمى بعض الناس الشيء علما وليس بعلم فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا، ولو قلت: إن العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصي أصنافه، ولا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت. فإذا كان الأمر كذلك فابدؤوا بالأهم فالأهم وابدؤوا بالفرض قبل النفل، فإذا فعلتم ذلك كان عدلا وقولا صدقا وقد قال بعض العلماء: اقتصد من أصناف العلم ما هو أشهى إلى نفسك وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك وسهولته عليك، وقال أيضًا بعض العلماء: لست أطلب العلم طمعا في بلوغ غايته، والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل إغفاله، وقال آخرون: علم الملوك النسب والخبر وجمل الفقه، وعلم التجار الحساب والكتاب، وعلم أصحاب الحرب درس كتب المغازي وكتب السير، فأما أن تسمي الشيء علمًا وتنهي عنه من غير أن يكون شيئًا يشغل عما هو أنفع منه، بل تنهى نهيًا جزمًا، وتأمر أمرا حتما والعلم بصر وخلافه عمى، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به.

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء،70/1.
(2) أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين،6/1.
(3) ابن الجوزي، الأذكياء، 1/1.

قال: ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به وصرت إليه وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها قال لي: قد كان بعض من نرتضي عقله، ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، فقلت: قد تربو الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة فلما فليتها أربى الفلي على العيان كما أربى العيان على الصفة وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ولا يفتقر الى المحتجين عنه قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل فهو سوقي ملوكي وعامي خاصي [1].

- إنما تطلب الدنيا لتملك، فإذا ملكت فلتوهب. وكان يقول: إنما يتكثر بالذهب والفضة من تقلان عنده. ووقع إلى بعض أصحابه: ليس من المروة أن تكون أوانيك فضيةً وذهبيةً، وجارك طاوٍ وغريمك غاوٍ [2].

- النساء شرٌّ كلهن، وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. الرجل يكتم بغض المرأة أربعين عاماً، ولا يمكن أن يكتم حبها يوماً واحداً، والمرأة تكتم حب الرجل أربعين عاماً، ولا يمكنها أن تكتم بغضه يوماً واحداً. ابن المعتز: من أتعب نفسه في الحلال لم يتق إلى الحرام، وهو كالطليح الذي مناه أن يستريح.

هي الضّلع العوجاء لست تقيمها ⁝ آلا إن تقويم الضّلوع انكسارها [3]

- الثناء بأكثر من الاستحقاق ملقٌ، والتقصير عن الاستحقاق عيٌ أو حسدٌ.

عليك بأوساط الأمور فإنّها ⁝ نجاةٌ ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

آخر:

وخير خلائق الأقوام خلقٌ ⁝ توّسط لا احتشام ولا اغتناما [4]

(1) ابن الجوزي، البيان والتبيين، ص 558.
(2) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، 32/1.
(3) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، 49/1.
(4) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، 88/1.

- الناس أربع طبقاتٍ: بين أمارةٍ، وتجارةٍ، وصناعةٍ، فمن لم يكن منهم كان كلاًّ عليهم. أربعةٌ لا يستحيى من الختم عليها: المال لنفي التهمة، والجوهر لأمن الإبدال، والدواء للاحتياط، والطيب للصيانة.

أبو بكر الصديق العتيق رضوان الله عليه: ثلاثٌ من كن فيه كن عليه: المكر، والبغي، والنكث، قال الله تعالى عزّ اسمه:{ٻ ٻ ٹ ٹ ٹ ٹ} [الفتح: ١٠]. وقال عزّ من قائل:{ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ} [فاطر: ٤٣]. وقال عزّ جده:{ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک} [يونس: ٢٣][1].

- كان المأمون يقول: سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء، وإن الرزق الواسع لمن لا يستمع به بمنزلة طعام موضوع على قبر! أف للبخل! لو كان طريقاً ما سلكته، ولو كان قميصاً ما لبسته! [2].

- وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم [3].

- قال المأمون: الأخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغني عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه[4].

- وذكروا أن المأمون ذكر أصحاب الصناعات فقال: السوقة سفل، والصناع أنذال، والتجار بخلاء، والكتاب ملوك على الناس، والناس أربعة: أصحاب الحرف وهي: أمارة، وتجارة، وصناعة، وزراعة، فمن لم يكن منهم صار عيالاً عليهم [5].

- وقال المأمون: اعتبروا في علوّ الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلابأنفسهم، إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير وكان قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة وتفرغوا لجلائل الأمور والتدبير واستكفوا الثقات وكونوا مثل كرام السباع التي لا

(1) المصدر السابق 96/1.
(2) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 2/1.
(3) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، 32/1.
(4) المحاسن والأضداد،40/1.
(5) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، 107/1.

تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه، وأنشده:

نحن الذين إذا تخمّط عصبةٌ ... من معشر كنا لها أنكالا
ونرى القروم مخافةً لقرومنا ... قبل اللقاء تقطّر الأبوالا
نرد المنية لا نخاف ورودها ... تحت العجاجة والعيون تلالا
نعطي الجزيل فلا نمنّ عطاءنا ... قبل السؤال ونحمل الأثقالا
وإذا البلاد على الأنام تزلزلت ... كنا لزلزلة البلاد جبالا

ولبعضهم في أبي دلف:

وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر
له همةٌ لامنتهى لكبارها ... على البرّ كان البر أندى من البحر
له راحةٌ لو أن معشار جودها ... فبارزه كان الخليَّ من العمر
ولو أن خلق الله في مسك فارسٍ ... كما بوركت في شهرها ليلة القدر
أبا دلفٍ بوركت في كل وجهةٍ

ولغيره:

لا تهدمن بنيان قومٍ وجدتهم ... بنوا لك بنياناً وكن أنت بانيا
وإن زهد الأقوام في طلب العلى ... فسام بكفّيك الندى والمعاليا

عبد الله بن طاهر:

فتىً خصه الله بالمكرمات ... فمازج منه الحيا والكرم
إذا همةٌ قصّرت عن يدٍ ... تناول بالمجد أعلى الهمم
ولا ينكت الأرض عند السؤال ... ليثني زوّاره عن نعم
بدا حين أثرى لإخوانه ... ففلّل عنهم شباة العدم

وذكّـره الحـزم غِـبَّ الأمـور :: فبـادر قبـل انتقـال الـنعم[1]

- قيل خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله، وأنتم في مهل بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه وبكاه جيرانه وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي فهو في التراب عفير وإلى ما قدم فقير[2].

- قال المأمون: الخطّ لسان اليد، وهو أفضل أجزاء اليد [3].

- قال المأمون: ثلاثٌ لا يعدم المرء الرشد فيهنّ: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس[4].

- قال المأمون: سبعة أشياءٍ لا تمل، أكل خبز البر، وشرب ماء العنب، وأكل لحم الضان، والثوب اللين، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر إلى كل شيء حسن. فقال له الحسن بن سهل: أين محادثة الإخوان يا أمير المؤمنين؟ قال: هن ثمانٍ وهي أولهن[5].

- قال المأمون: الناس في تصرفهم ومعايشهم بين أربعة أمور، من لم يكن منها كان عيالا عليها وكلاّ: الإمارة، والتجارة، والزراعة، والصناعة[6].

- قال المأمون: لو سئلت الدنيا عن نفسها ما زادت في وصفها عن وصف أبي نواس حيث يقول:

(1) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،82/1.
(2) المستطرف، 137/1.
(3) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 66/1.
(4) المصدر السابق، 99/1.
(5) المصدر السابق، 191/1.
(6) المصدر السابق، 201/1.

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ⁝ له عن عدو في ثياب صديق [1]

- قال المأمون: نحن إلى أن نوعظ بالأعمال، أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال[2].

خطبة المأمون:

فحمد الله المأمون وأثنى عليه ثم قال: قد عرفتمونى من حق أمير المؤمنين أكرمه الله مالا أنكره، ودعوتمونى من الموازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم والمسارعة إلى ماسره ووافقه حريص وفي الروية تبيان الرأى وفي إعمال الرأى نصح الاعتزام، والأمر الذى دعانى إليه أمير المؤمنين أمر لا أتأخر عنه تتبطا ومدافعة ولا أتقدم عليه اعتسافا وعجلة وأنا في ثغر من ثغور المسلمين كلب عدوه شديد شوكته وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية وإن أقمت عليه لم آمن فوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرته وإيثار طاعته فانصرفوا حتى أنظر في أمري ويصح الرأى فيما أعتزم عليه من مسيرى إن شاء الله.

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين يسأله أن يعفيه من الشخوص إليه وأن يقره على عمله إذ يرى أن ذلك أعظم غناء على المسلمين [3].

- خطبته وقد ورد عليه نعى الرشيد:

خطب الناس بمرو حين ورد عيه نعى الرشيد فقال: إن ثمرة الصبر الأجر، وثمرة الجزع الوزر، والتسليم لأمر الله عز وجل فائدة جليلة وتجارة مربحة، فالموت حوض مورود، وكأس مشروب وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فما كان إلا عبدا دعي فأجاب وأمر فأطاع وقد سد أمير المؤمنين ثلمه وقام مقامه وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى

(1) المصدر السابق، 237/1.
(2) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، 249/1.
(3) جمهرة خطب العرب،103/3 - 104.

واغتبطوا بالنعماء والوفاء في خليفتكم الباقي بأهل الدنيا الموت نازل والأجل طالب وأمس واعظ واليوم مغتنم وغد منتظر [1].

ـ خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافه:

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: أيها الناس إنى جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على، ولا أحكم بهواى في غضبى ولا رضاي إلا ما كان في الله وله جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا إنى أفي رغبة في زيادته إياى في نعمتى ورهبة من مسألته أياى عن حقه وخلقه فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته وأن يحول بيني وبين معصيته [2].

خطبته يوم الجمعه:

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ومستوجبه على خلقه أحمده وأستعينه وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده والعمل لما عنده والتنجز لوعده والخوف لوعيده، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم وترحلوا فقد جد بكم واستعدوا للموت، فقد أظلكم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فإن الله لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار

(1) جمهرة خطب العرب،120/3.
(2) جمهرة خطب العرب،120/3.

إلا الموت أن ينزل به وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها فيالها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة أو تؤديه أيامه إلى شقوة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعته غفلة ولا تحل به بعد الموت فزعة إنه سميع الدعاء وبيده الخير وإنه فعال لمايريد.

- خطبته يوم الأضحى:

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله وأوجب تشريفه وعظم حرمته، ووفق له من خلقه صفوته وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ومتقدم الأيام المعدودات من النفر يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام يوم الحج الأكبر يوم دعا الله إلى مشهده ونزل القرآن بتعظيمه قال الله جل وعز: {ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ} [الحج: ٢٧ ـ ٣٠]، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم وعظموا شعائر الله، واجعلوها من طيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول:{ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو} [الحج: ٣٧]، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية بالتقوى، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار: عظم قدر الدارين وارتفع جزاء العملين وطالت مدة الفريقين الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب

والقصاص والصراط ثم العقاب والثواب فمن نجا يومئذ فقد فاز ومن هوى يومئذ فقد خاب الخير كله في الجنة والشر كله في النار [1].

ـ خطبته يوم الفطر:

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة يوم ختم الله به صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج وجعله معقبا لمفروض صومكم ومتنفل قيامكم أحل فيه الطعام لكم وحرم فيه الصيام عليكم فاطلبوا إلى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم فإنه يقال: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار ثم التكبير والتحميد وذكر النبي والوصية بالتقوى ثم قال فاتقوا الله عباد الله وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم وهو الموت المكتوب عليكم فإنه لا تستقال بعده عثرة ولا تحظر قبله توبة واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ولا شيء بعده إلا فوقه ولا يعين على جزعه وعلزه وكربه ولايعين على القبر وظلمته وضيقه ووحشته وهول مطلعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرجعة إلى مالا يجاب إليه وبذل من الفدية ما لا يقبل منه فالله الله عباد الله وكونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها.

فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة لما عليه وله فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضهم عنها قال:{ڃ ڃ ڃ ڃ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ککک گ گ گ گ گگ گ گ گ گ گ} [الكهف: ٤٩]، وقال:{ڤ ڤ ڤ ڤ

(1) جمهرة خطب العرب،121/3 - 122.

ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ}
[الأنبياء: ٤٧]، ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها فإن كل ما بها ينهى عنها وكل ما فيها يدعو إلى غيرها وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها ونهى الله عنها فإنه يقول: {ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ} [لقمان: ٣٣]، وقال: {ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ} [محمد: ٣٦]، الآية، فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله فيها فأدركوا الجنة بما تركوا منها.

ومن سالمنا سالمناه، والناس جميعا آمنون إلا رجلا نصب لنا نفسه وأعان علينا بماله ولو شئت أن أقول: ورجل قال: فينا يتناول من أعراضنا لقلت وكفى حسب كل امرئ ما يصنعه وسيكفى الظالمون [1].

- قال المأمون: العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره، فابدؤوا بالأهم فالأهم بالفرض قبل النقل، إن الأهم المقدم. وقيل: ضيع الناس الأصول بتركهم الأصول [2].

- قال المأمون: ما تكبر أحد إلا لنقص وجده في نفسه، ولا تطاول إلا لوهن أحسن من نفسه[3].

- قال المأمون: لاتتقد مصابيح الأذهان إلا بصفو مواردها[4].

- ووقع المأمون لآخر: لو استقامت لك الطريقة لرضيت الخليقة، فإن لم تدع فيهم القذل راعينا فيك العزل! [5]

- وقال المأمون: حسبك من السعاية أن ليس في الدنيا صدق مذموم غيرها[6].

- قال المأمون لإبنه العباس: قلم أظفارك من جليسك، فأخس الناس

(1) جمهرة خطب العرب،122/3، 123.
(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 18/1.
(3) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 119/1.
(4) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 28/1.
(5) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 79/1.
(6) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 177/1.

من دمي جليسه بظفره. قال: ولله در القائل:

لا أخدش الخدش بالجليس ولا ⁝ يخشى جليس إذا إنتشبت يدي[1]

- قال المأمون: من أراد أن يطيب عيشه فليدفع الأيام بالأيام [2].

- وقال المأمون: لا تستعن في حاجتك من هو لمطلوب إليه أنصح منه لك[3].

- قال المأمون لعبد الله بن طاهر: تثبت فإن الله عز وجل قد قطع عذر العجول بما يمكنه من التثبت، وأوجب الحجة على القلق بما بصره من فضل الأناة؛ قال ابن طاهر: أكتبه؟ قال: نعم[4].

- وقال المأمون لما احتضر: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه[5].

- وقال المأمون: ليس من توكل المرء إضاعة الحزم، ولا من الحزم إضاعة التوكل[6].

* * *

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 177/1.
(2) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 31/1.
(3) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 35/1.
(4) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، 51/1.
(5) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 56/1.
(6) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية،99/1.